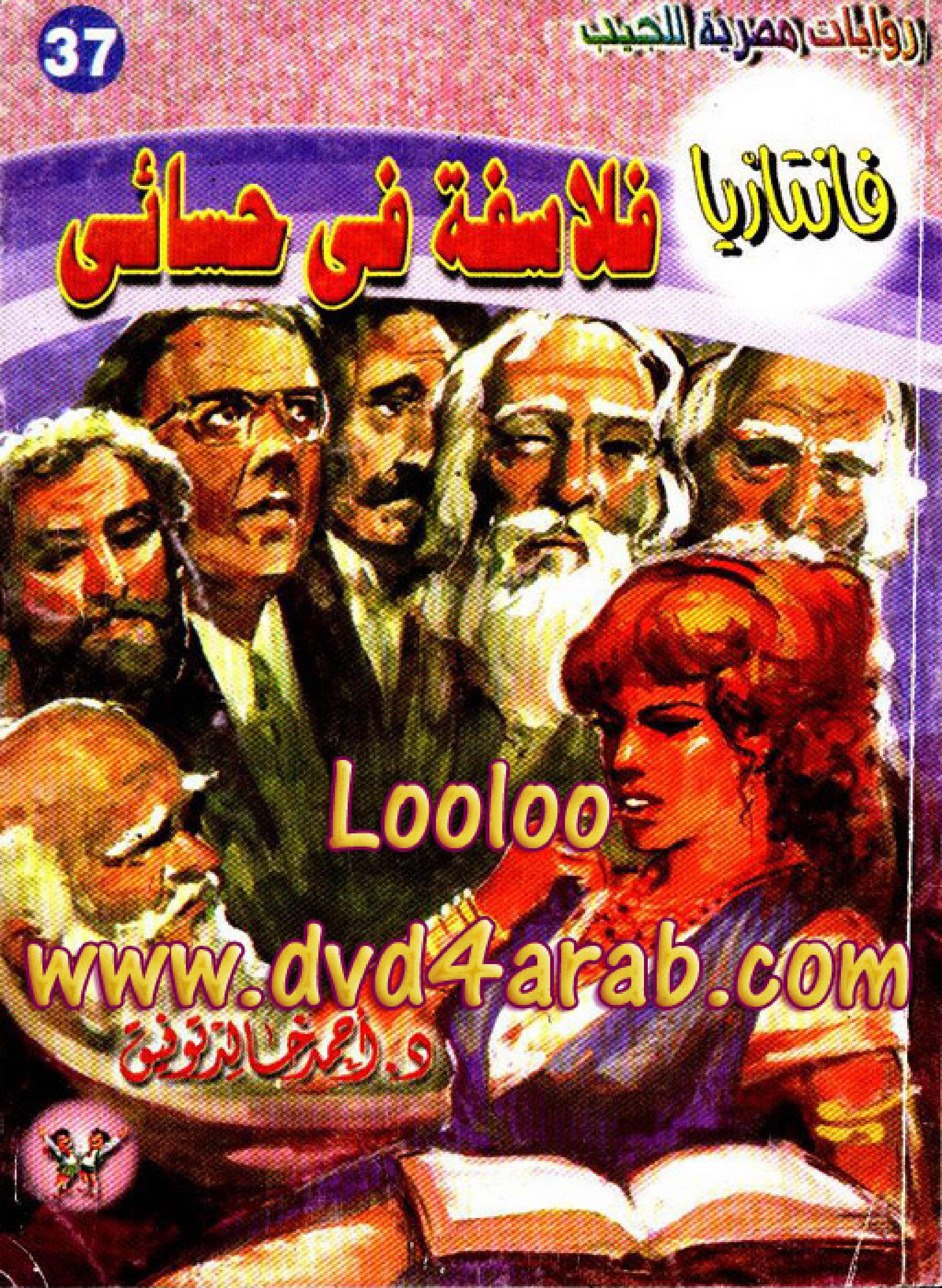

37
روايات مصرية للجيب
فانتازيا
فلاسفة فى حسائى
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

هذه القصة استكمال لفكرة بدأها أستاذ الأدب الساخر العظيم (محمد عفيفى)، فى كتابه (فانتازيا تاريخية)، حين تخيل نفسه ضائعًا فى بلاد اليونان يفتش عن أفضل فلسفة ممكنة .. لا يخجل التلميذ من الاعتراف بأنه بدأ من إحدى أفكار أستاذه، خاصة إذا كان الأستاذ فى ثقل وعمق وموهبة وتميز (محمد عفيفى).

1- نهاية عصر ..

فى نهار بهيج من شهر (أكتوبر) تم الطلاق ..

بمجرد عودته من الخارج، تسارعت الإجراءات وسرعان ما تم الطلاق، الذى توقعه كل إنسان فى الأرض ما عداها .. كل إنسان رأى فى هذه الزيجة نهايتها، والشهود الذين وقعوا عقد الزواج أبقوا أقلامهم مكشوفة لتوقيع عقد اللقاء ..

لكنها لم تتوقع هذا قط ..

كانت فى قرارة نفسها تؤمن بأنها تستحق .. تستحق أن يعود (شريف) لها ويترك الأخرى .. تستحق أن يعرف كم هو مخطئ .. تستحق أن يزحف عند قدميها دامع العينين ويخبرها أنه كان حمارًا ..

لكن شيئًا من هذا لم يقع ..

لقد تم كل شىء ببساطة وقسوة ..

وكان مستعدًا تمامًا لعمل أى شىء كى يريحها ماديًا .. هو مستعد لأى شىء كى ينهى هذا الفاصل من حياته .. أما هى فكان هذا الفاصل هو كل حياتها ..

قالت لها أمها :

ـ « لم يكن ابن أصل من البداية .. وغدًا تتزوجين خيرًا منه .. »

لكنها كانت تعرف أن هذه الكلمات تقال لأنها يجب أن تقال .. لن تتزوج سيد سيده ولا شخصًا أقل منه ، ببساطة لأنها لا تريد .. ولأنها أم ..

حياة طويلة قاسية من الوحدة تنتظرها ، لكنها على الأقل تملك طفلتها .. وبالإضافة لكونها طفلتها فهى تحوى خمسين فى المائة من كروموزومات (شريف) ، وهى لم تستطع قط أن تكره (شريف) ..

ستكون لديها ساعات عظيمة تجتر فيها كل الألم .. كل المهانة .. كل الصدمة التى شعرت بها منذ وجدت تلك الورقة المشئومة فى جيبه ، حتى أمسكت بورقة طلاقها شخصيًا ..

محاولات إقناع أخيها بألا (يضربه) .. وعلاقة أخيها بالناس بسيطة جدًا تتلخص فى أن يضربهم .. صحيح أنها لم تره يضرب أحدًا قط لكنه يتكلم عن ذلك طيلة الوقت ، وليس من سبب لافتراض أنه كاذب ...

محاولات إقناع أمها بألا تعذبها أكثر من هذا وأن تصمت .. لا تريد أن يحدثها مخلوق عن الموضوع .. لا تريد عبقريًا يفتش عن حقوقها الضائعة .. فقط تريد أن تترك وشأنها ..

فى هذه الفترة الكئيبة ازدادت قراءاتها إلى حد مروع .. ومن الغريب أنها وجدت بعض كتب عن الفلسفة فراحت تطالعها .. لم تفهم شيئًا طبعًا لأنها مبرمجة على الأدب ، لكنها كانت تعرف أنه لا شىء يمحى من عقلها الشبيه بمقلاة من نوع ردىء تلتصق بها كل أنواع الطعام .. وهى نعمة حمدت الله عليها .. لو كانت أكثر ثراء لكان عقلها مقلاة من نوع فاخر ، ولما التصق به شىء على الإطلاق ..

كانت تهاب الجهاز الجاثم كالكابوس فى حجرتها .. إنه يذكرها بكل شىء .. كل جزء فيه يحمل ذكرى ما ، وله رائحة تبغ (شريف) حين كان يدخن ، ورائحة عطره حين لا يدخن ..

كما قلنا لم تكن تستعمل الجهاز إلا لدخول عالم (فانتازيا) ، لهذا كانت تقدر أنه لن يتلف .. لن يتلف فى القريب العاجل ، لكنها قررت أن تطلب عون من يفهم فى هذه الأجهزة كى ينسخ لها البرنامج على أسطوانة صلبة .. فهى تكره الجهاز الآن ، لكنها حتمًا ستجد نفسها محتاجة لدخول (فانتازيا) .. ماذا لو رفض الجهاز الاستجابة ؟ لن تذهب لـ (شريف) طالبة العون .. الحل الوحيد إذن هو التعامل بحذر شديد مع هذا الكنز .. لن تستعمله فى أى شىء من أى نوع .. ستتصدى بحرص لمحاولات أخيها التعامل معه ..

منذ يومين جاء حاملاً أسطوانة مدمجة .. وقال إنه حصل عليها من صديق فى المقهى ..

ـ « إن عليها بعض ألعاب (الأتارى) .. لقد علمنى (سعيد) كيف أشغلها .. »

كما قلنا فإن كل أصدقاء أخيها اسمهم (سعيد) .. ينطق الاسم كأنه (سعا) بحذف الدال وتحويل الياء إلى ألف وإخراج العين من الحلق ، وكل لعبة كمبيوتر عند أخيها هى (أتارى) إلى أن يثبت العكس .. وكانت هذه اللعبة بالذات تجعلك تقود سيارة مجنونة فى شوارع المدينة تدهم بها المارة والأطفال ، وكلما قتلت عددًا أكبر ازداد ما تحصله من نقاط .. هذه هى اللعبة الوحيدة التى حركت شيئًا فى روح أخيها المرهفة ، وجعلته على استعداد للتعامل مع هذا الجهاز اللعين .. لقد فهم ـ أخيرًا ـ أن الكمبيوتر اختراع مفيد ..

لكنها تصدت له بحرارة ورفضت أن تشرح له كيف يفتح صينية القرص المدمج .. كانت تعرف أن هذه هى البداية ، وبعدها تتعدد الأقراص المدمجة ، ثم يأتى أصدقاؤه ليلعبوا عنده .. ويخرج الكمبيوتر إلى الصالة لأنهم لن يلعبوا فى غرفة نومها .. ثم يأتى اليوم الذى يتحول فيه الجهاز إلى (عشة دجاج) ..

كلا .. هذا الكمبيوتر يخصنى ومن منقولاتى ولن يمسه أحد .. ربما بعد وفاتى يمكن أن تلمسوه ..

كان أخوها متضايقًا بحق .. وقال أشياء عن منعها له من لعب (الأتارى) هو الذى يشقى فى متجر الأدوات الصحية طيلة اليوم .. هنا كانت مستعدة لسلاح الأنثى الثانى بعد البكاء : الهستيريا ..

بهذه الطريقة ضمنت أن يظل الجهاز بمنأى عنه ..

أما عن الكيفية التى تغلبت بها على نفورها المزمن من الجهاز فقصة يطول شرحها ..

المهم أنها تجاسرت أخيرًا وفتحته .. وحيدة فى الظلام وقد نام الجميع راحت رسائل البدء تتوالى على الشاشة .. يطمئن المعالج على سلامة أجزائه مرددًا OK بلا انقطاع .. قدماى سليمتان OK .. رأسى سليم OK .. أنا يقظ ونشط .. OK ..

وأخيرًا وجدت أنها تضغط المفاتيح بيد مترددة ..

جولة سريعة فى (فانتازيا) لن تؤذى أحدًا ..

لكن إلى أين ؟

* * *

2 ـ نادى الفلاسفة الغريبين ..

تأرجح يا قطار (فانتازيا) المضحك عبر السهول والوديان ..

(عبير) فى الداخل ساهمة النظرات ، والمرشد جوارها يتسلى بالضغط على قلمه .. يحاول احترام صمتها لكنـه لا يستطيع أن يبقى صامتًا للأبد ..

ـ « هيه ! انتهت الرحلة ! »

نظرت له فى عجب فكرر كلامه :

ـ « انتهت معالم (فانتازيا) ولم تختارى شيئًا ! هل نعود إذن ؟ »

ـ « هل تعنى أننى مررت بقلعة (فرانكنشتاين) ولندن فى الضباب و(طرزان) و(باتمان) وكل هذا الهراء ؟ »

ـ « بالتأكيد .. لقد انتهت معالم (فانتازيا) حتى آخر إضافة لهذا الشهر .. لو كنت تريدين المزيد فعليك انتظار الأعمال الأدبية للشهر القادم .. لا أعرف إن كانت هناك رواية جديدة لـ (ستيفن كنج Stephen Knig) أم لا ، لكن هناك رواية جديدة دائمًا له للأبد .. هل ترين انتظارها ؟ أم تنتظرين فيلم (ماتريكس Matrix) الجديد ؟ »

ـ « ليس إلى هذا الحد .. ربما لو عدنا القهقرى لاخترت شيئًا .. »

هكذا رفع قبضته ودق على سقف القطار .. لا أعرف من الذى يقود هذا القطار ، لكنه بارع جدًا ومرهف السمع كما يبدو .. سرعان ما اتخذ القطار تحويلة فرعية ثم عاد ليجرى على نفس القضيب فى الاتجاه المعاكس ..

من جديد بدأت ترى معالم (فانتازيا) التى اعتادت بعضها .. ترى عالم (ماركيز) الذى هو خليط من الواقعية والفانتازيا .. عالم الواقعية الأسطورية اللاتينية كما يسمونه ..

عالم (يوسف إدريس) الخاص جدًا .. عالم (يحيى حقى) شديد الخصوصية .. ألعاب تاريخية .. قصص الثورة الفرنسية .. دستة كاملة من عوالم مصاصى الدماء .. محكمة (جريشام Grisham) دائمة الانعقاد ، ومشرحة (باتريشيا كورنويل Cornwell) التى لا تخلو من الجثث ، ومستشفيات (روبن كوك Cooke) التى تعج بالأطباء الأوغاد خائنى الأمانة .. عوالم (تولكين Tolkien) الغريبة وأرضه الوسطى .. عوالم (بوتزو Puzo) حيث هناك أكثر من دون وصقلى وأسرة غاضبة وقتلة مافيا .. مائة قصة تدور فى الجنوب الأمريكى حيث

يتهم شاب زنجى برىء بالتحرش بفتاة بيضاء .. الجدة العجوز تزور القرية فى مسرحية (دورنمات Durnmat) الشهيرة ..

كل هذا مرت عليه عيناها دون أن تتوقفا .. فقط تمارسان الحركة الدائرية الراقصة التى تمارسها عينا أى شخص ينظر من نافذة قطار ..

قال لها المرشد :

ـ « هل لى أن أساعدك فى الاختيار ؟ »

ـ « أتمنى هذا لكن لا تضعنى فى (ناجازاكى Nagasaki) يوم انفجار القنبلة .. »

ضحك كثيرًا فى سادية لا شك فيها ، ثم قال :

ـ « أنت لا تفهمين لماذا تعيشين .. لا تفهمين ماهية السعادة .. ماذا يحمله الغد ؟ من أنت ؟ »

تنهدت واسترخت فى مقعدها وقالت :

ـ « أنت تتحدث بلسانى .. لست أحمقًا إلى هذا الحد .. على أن هذه أسئلة محدودة بالنسبة لما يدور فى رأسى وصدرى .. لا أعرف حقًا أين تعتمل هذه الأسئلة لكنها موجودة .. »

تهلل وجهه وجذب الحبل ، ونظر من النافذة وقال :

ـ « نحن نمر عند النقطة بالضبط .. لحظة .. هذه هى ! »

نظرت من النافذة فلم تر شيئًا ذا بال .. هناك ما يبدو لها كمعبد يونانى مهدم قديم .. لو كنت رأيت المسرح الرومانى فى الإسكندرية فأنت اقتربت جدًا .. ومزية الآثار اليونانية عامة هى أنك ترى عمودين محطمين يستندان فوق عمود مائل .. وهذا كاف لتنقطع أنفاس السياح .. طبعًا هذا لا يحرك ساكنًا فى شخص أتى من مصر حيث يوجد أثر تحت كل حجر ، إلى درجة أن النوبيين كانوا يشوون الدجاج لـ (بلزونى Belzoni) النصاب الإيطالى الشهير على نيران المومياوات ! كانوا يستعملونها بدلاً من الحطب لأنها أكثر وفرة وجفافًا وأرخص !

قالت له فى خيبة أمل :

ـ « هل هى عوالم المسرح اليونانى ؟ لم أحبه قط .. »

قال باسمًا :

ـ « لأنك حمقاء .. على كل حال يمكنك أن تطمئنى .. هذا مجرد ديكور يميز نادى الفلاسفة الغربيين .. بما أن الفلسفة فن وعلم يونانى أساسًا فقد قررت إدارة (فانتازيا) أن يتخذ النادى هذا المنظر .. »

فكرت قليلاً ثم قالت :

ـ « فلاسفة غربيون ؟ لماذا هم بالذات ؟ »

ـ « هناك الفلسفة الإسلامية والبوذية والكونفوشيوسية .. لكنها تحتاج إلى رحلات منفصلة .. إنها عوالم ضخمة جدًا شديدة التعقيد ، وفى رأيى أنها لا تناسب غير المختصين منعًا للبلبلة الفكرية .. »

قالت فى ضيق وهى تسند ذقنها إلى حافة النافذة :

ـ « فلسفة ؟ لماذا نأكل البرتقالة ؟ هل هى موجودة أم أننا نتخيل ذلك ؟ لماذا نأكل ؟ هل البرتقال لذيذ أم أننا نعتقد ذلك ؟ هل حواسنا هى التى أوجدت البرتقالة ؟ »

ثم ابتسمت وغمغمت :

ـ « أليس كذلك ؟ جدل يدخل فى جدل ويخرج من جدل ، إلى أن تفسد البرتقالة ونلقيها فى القمامة ؟ »

صاح فى حماس مصفقًا بيديه :

ـ « أنت عبقرية يا فتاة ! لقد لخصت ماهية الفلسفة ببضع كلمات !! كما ترين هذا المكان يعدك بالكثير من المرح ، لكنه كذلك قد يعينك على فهم مشكلتك .. إن حياتك بلا جدوى كما ترينها ، والفلسفة هى العلم الذى سيعينك على فهم نفسك وفهم الكون .. »

فكرت قليلاً ثم هزت رأسها :

ـ « ليكن .. سأجرب .. »

هكذا نهضت متثاقلة .. وترجلت من القطار على الرصيف الدائم الذى لا يظهر إلا حين تقرر النزول ..

وفى اللحظة التالية أدركت أنها تلبس الثياب المناسبة .. تلبس ثيابًا كالتى لبستها فى الأساطير الإغريقية وحين اجتازت (الإلياذة Iliad) و(الأوديسة Odyssey) .. شيئًا أقرب إلى ملاءة بيضاء تلتف حول أحد كتفيها ، بينما شعرها معقوص بشكل هلليني جميل إلى مؤخرة رأسها ، وقدماها فى صندل إغريقى له شرائط تلتف حول ربلتى ساقيها ..

وحين نظرت وراءها أدركت أن القطار قد رحل بمن فيه من مرشدين ..

عليها أن تعتمد على نفسها بدءًا من هذه اللحظة ..

* * *

تمشى بين الخرائب اليونانية .. تحاول ألا تتعثر فى هذا العمود أو ذاك .. وجوه مخيفة لتماثيل نصفية مهدمة ترمقها فى شك حيث ارتمت هناك على الأرض ..

يبدو الأمر كأن هذا بستان منسى .. كل شىء يدلها على أن عليها المشى بهذا الاتجاه ..

هناك أشجار غليظة ملتفة الأغصان ، وقد بدت أقرب إلى وحوش نائمة منها إلى أى شىء آخر .. لو لم تكن متأكدة من أن هذه مغامرة بلا رعب ، لتوقعت خروج الأخت (ميدوسا Medusa) من وراء شجرة فى أية لحظة ..

أخيرًا ترى الباب الحديدى الموارب كأنه مصيدة للبلهاء ..

على الباب هناك عبارة باليونانية لكنها تستطيع قراءتها برغم كل شىء ..

نادى الفلاسفة الغربيين

هى لم تضل الطريق إذن .. (نادى الفلاسفة الغربيين) فلا غرابة فى أن تجد فلاسفة غربيين بالداخل ..

أزاحت الباب أكثر ، فكان له صرير محبب ..

الباب يقود إلى حديقة أضيق وأصغر وفى نهاية الممر الصغير يوجد باب آخر .. وبناية متهالكة لها ذات الطابع الكئيب المميز للمدارس الحكومية ..

قابلها رجل قصير القامة ذو عين واحدة حولاء ، يرتدى بذلة لها طابع الستينات ، ومن فمه تتدلى لفافة تبغ يبدو أنها من معالم وجهه .. وجواره امرأة نحيلة فى الخمسين من عمرها ..

قال لها بالفرنسية التى تفهمها برغم كل شىء :

ـ « أوه .. أنت قررت القدوم هنا ، لذا أنت مسئولة عن قراراتك .. »

وقالت المرأة وهى تتأبط ذراعه :

ـ « جربى أن تحققى كينونتك كامرأة من دون (المرشد) .. »

ثم تركاها وغادرا البناية .. فيا لخيبة الأمل ! كانت تتوقع مشهدًا أقل تقليدية وأكثر غرابة ..

لكن المشهد الغريب الذى تمنته جاء بلا إبطاء .. هناك رجل قصير القامة بشع الخلقة له شارب كث .. كث إلى درجة أنه يغطى نصف وجهه الأسفل .. نظر لها نظرة مجنونة متوحشة لا شك فيها ، وقال :

ـ « أنت واهنة حقًا .. أنا لا أطيق الضعف ! »

ثم بصق على الأرض وغادر المكان ..

ورجل آخر من الطراز الذى تراه فى الكتب المدرسية .. له سالفان كثان .. كثان إلى درجة أنهما يقومان بدور اللحية ويجعلانه شبيهًا بقردة (البابون) .. قال لها وهو يحكم ربطة عنقه :

ـ « أنت مكتئبة .. لا غرابة فى هذا .. فالحياة كلها شر .. »

ورجل معاصر على قدر من الوسامة برز لها ولفافة تبغ أخرى تتدلى من ركن فمه ، ليقول بالفرنسية :

ـ « هل جربت الانتحار يا صغيرتى من قبل ؟ لو لم تكونى جربته فأنا أنصح به .. »

كانت كلماتهم مألوفة .. لقد قرأتها فى مكان ما فى موضع ما .. لكنها ـ بصفتها مؤسسة حزب المواسير الأعظم ـ لم تستطع تذكر أى شىء .. فقط ظلال مبهمة تقول لها إن هذا الموقف ليس جديدًا ..

الآن ترى قاعة كبيرة واسعة .. مائدة طويلة يجلس إليها أغرب مجموعة من غريبى الخلقة فى التاريخ .. كل الوجوه الممكنة ، وكل الثياب غير الممكنة من عدة عصور .. هناك رجل يلبس برميلاً كأنه يمثل مشهدًا من كوميديا (الفارص farce) سرقت فيه ثيابه ، ورجل يزحف على ركبتيه وساقيه ويعوى كالكلاب .. هناك فتى سفيه يمسك بدن من الخمر وقد دس عنقودًا من الكروم خلف أذنه ، وهناك ...

لو كانت تبحث عن حل فهو ليس هنا بالتأكيد .. المشهد لا يوحى بالثقة ..

هنا تكلم الرجل الجالس فى صدر المائدة ..

كان قبيحًا كالأبالسة لكنه وقور موح بالهيبة وله سمت الفلاسفة كما تخيلتهم دومًا ...

قال لها بصوت وقور جدير بالمحاورات :

ـ « تعالى يا فتاة .. لماذا تعتقدين أنك جديرة بالانضمام إلى هذا النادى ؟ »

* * *

3ـ معلم أثينا ..

« من الأفضل أن نعانى الظلم من أن نمارسه .. »

سقراط

★ ★ ★

كان السؤال سخيفًا ، فهى لم تطلب الانضمام للنادى ، ولكن أشياء كهذه لاتقال بالطبع .. من الصعب أن يقول الرجل للفتاة : (أنا لم أطلب يدك قط .. من الأحمق الذى قال هذا ؟) .. هذه وقاحة .. والأقرب للتهذيب أن يتنصل من الأمر بحيطة وكياسة .. أنا لست جديرًا بك لهذا سأرحل .. وكذا ستفعل (عبير) ...

قالت وهى تتراجع للوراء :

ـ « حسبت للحظة أن ... لكنى حمقاء .. آسفة على إزعاجكم .. وداعًا .. »

ـ « انتظرى ! »

ثم تبادل بعض الكلام مع الجالس عن يمينه .. وقفت هى مرتبكة لاتعرف ماتفعله .. لكنها تختلس النظر إلى الجالسين الذين بدأ الاهتمام يلوح عليهم .. الرجل الأحول ومرافقته يعودان من الخارج ، وهو يحمل مجلدًا عملاقًا تحت إبطه .. كذلك عاد الرجل كث السالفين الذى يشبه المذعوبين ..

قال الرجل الجالس فى صدر المائدة :

ـ « ليكن .. نحن هنا مجموعة من الفلاسفة .. ولفظة (فيلسوف) فى حد ذاتها تعنى (محب الحكمة) .. من المثير أن نرى هذا الاهتمام الشغوف لدى فتاة من سنك .. لقد اعتدنا إلى حد ما أن تكون الفلسفة علمًا رجوليًا .. أما النساء فدورهن يقتصر على منعنا من ممارسة هذا العلم .. »

فى هذه اللحظة هوى شلال من الماء فوق رأس الرجل الوقور ..

نظرت (عبير) لأعلى فوجدت أن هناك شرفة عالية تشبه (بنوار) المسرح ، وأن هناك امرأة إغريقية شرسة المنظر مفتولة العضلات تحمل دلوًا وتقف هناك .. وهى تمارس (الردح) كما تعرفه (أم بلبل) جارة (عبير) سليطة اللسان فى الحارة .. تقول كلامًا يونانيًا كثيرًا لاتفهم (عبير) أكثره ، لكنه على الأرجح لايزيد على ماتقوله (أم بلبل) المذكورة حين تجد زوجها ما زال جالسًا على المقهى مع رفاق السوء .. وكل أصدقاء الزوج (رفاق سوء) فى نظر أية زوجة ..

كان المنظر محرجًا خاصة مع وقار الرجل .. هذا مشهد لايثير الضحك لكن يثير الأسى ...

لكن الرجل لم يعلق .. فقط أخرج منديلاً إغريقيًا راح يجفف به حاجبيه وقال :

- « إن المطر ينهمر دائمًا بعد الرعد ! لاتهتمى بذلك كثيرًا ، وإن كان يبرهن لك على مدى اهتمام المرأة بالفلسفة ! أحيانًا نتفلسف لأنها الوسيلة الوحيدة التى نهرب بها من نسائنا .. ونساؤنا بهذه الطريقة يلعبن دورًا مهمًا جدًّا فى تطور فلسفتنا ! بنفس المنطق الذى تصنع به الكلاب المسعورة منك بطلة فى الجرى ! »

هنا تذكرت ذلك المشهد الشهير .. مشهد الفيلسوف الذى يسكب فوقه دلو من الماء وهو يتفلسف ، فهتفت فى ذهول :

- « إذن .. أنت (سقراط Socrates) ؟ »

- « بشحمه ولحمه .. اعتبرينى رئيس هذا النادى الموقر .. لست أول الفلاسفة ولا أهمهم لكنى - بلا فخر - أشهرهم .. وسؤالى لك هو : هل جئت هنا لتفهمى نفسك ؟ »

فى تردد وبصوت مبحوح قالت :

- « نعم .. »

- « وتريدين أن تأخذى موقفًا من حياتك وغوامض الكون ؟ »

- « نعم .. »

ولم تفهم أن هذه أولى علامات الأسلوب السقراطى .. أسئلة متلاحقة والأجوبة عليك أنت ..

- « إذن أنت فى المكان الصحيح .. »

هنا تدخل الرجل ذو الشارب الكث نافد الصبر قائلاً :

- « دعك من هذا التطويل .. اسمعى يا فتاة .. نحن نتباين بشدة فى آرائنا فى الحياة .. ولن تخرجى منا مجتمعين برأى موحد ، لذا أرى الصواب هو أن ترافقى كلاً منا بضعة أيام .. تتشربين فلسفته بدقة وتعرفين ما يتكلم عنه ، وفى النهاية يتكون لديك رأيك الخاص الناضج .. »

قال (سقراط) وهو يجفف صلعته :

- « هذا رأى صائب يا (نيتشه Nietzsche) برغم أننى لا أطيق آراءك عامة .. إذن لك أن تختارى من تبدئين التعلم معه .. سنضع لك برنامجًا مكثفًا : يوم واحد مع كل فيلسوف شهير .. أعتقد أن بوسعك اتخاذ قرارك بعد ثلاثة أعوام ! »

صاح الرجل ذو العين الحولاء فى احتجاج :

- « هراء ! تريد منها أن تلم بالفلسفة الوجودية existentialism فى يوم واحد ؟ هذا تلفيق .. إننى أدنو من نهاية حياتى وما زلت أتعلم .. »

قال (سقراط) باسمًا :

ـ « هلم يا مسيو (سارتر Sartre) .. أنت لاتحاضر فى الجامعة .. يمكن تحويل الموضوع إلى برشامة تبتلعها هذه البائسة .. أنت تعرف ذلك الولع المرضى لدى العلماء : (الأمر ليس بهذه البساطة .. الأمر معقد جدًا .. لا تطالبنى بأن أختصر مجهود عمر فى سطر واحد) .. وهو مجرد دفاع يائس عن النفس يشعرنا بأننا لم نضيع أعمارنا هباءً .. لكنك تعرف كما أعرف أن أى شىء فى العالم يمكن تلخيصه .. ربما بلا كفاءة ، لكن بما يناسب حجم مخ هذه الفتاة الضئيل ! »

لم تدر هل تشكره على الرفق بها ، أم تلومه على هذه الإهانة .. لكنها استراحت لذلك الترتيب .. يوم واحد مع كل فيلسوف لن يتجاوز قدرتها على الاحتمال .. واحتمال الفلاسفة فن صعب بحق ..

قال (سقراط) فى برود وهو يدون شيئًا :

ـ « طبعًا سيعقد لك امتحان صغير فى نهاية الدورة .. ماذا عرفت عن نفسك وعن الحياة ؟ لو نجحت فى الامتحان فبها ورحبت ، وإن رسبت كان عليك أن تبقى هنا للأبد إلى أن تتسرب الفلسفة إلى روحك ! »

للأبد ؟ سيكون هذا عسيرًا .. ربما لو قطعوا رقبتها لكان هذا أكثر رحمة .. قالت وهى تتنهد :

ـ « ليكن .. أنا موافقة .. لكن من أين أبدأ ؟ »

قال (سارتر) وهو يمضغ لفافة تبغه :

ـ « من البداية طبعًا .. سيرتب لك (سقراط) الأمر .. أتمنى لك حظًا سعيدًا .. »

وتصايح الفلاسفة يتمنون لها حظًا سعيدًا .. كانوا يتمنون لها المزيد من المعرفة ، بينما كانت هى فى قرارة نفسها تتمنى وقتًا ممتعًا لا أكثر ولا أقل ..

ترى من أين تبدأ ؟

★ ★ ★

لم يكن (سقراط) جميلاً على الإطلاق .. كان أصلع الرأس جاحظ العينين مخيف النظرات ...

لكنه كان لطيف المعشر بحق .. وله طريقة ودود تأسر القلوب ..

أمسك بيدها برفق واقتادها إلى الحديقة الخارجية التى ترتمى فيها التماثيل ، وهناك فوجئت بأن هناك مظاهرة من

الشباب اليونانى .. كلهم يقبل فى حماس كأنهم ذاهبون لمشاهدة مباراة كرة قدم .. العيون تلمع مع نظرة شغف شديدة .. نوع من الجوع العقلى الواضح مع استعداد تام لافتراس أية فكرة جديدة ..

لم تشعر براحة وسط هذا الزحام ، لكنها أدركت أنه لا أحد ينظر لها أو يجد مزاجًا رائقًا لسماع ما تقول .. إن (سقراط) هو الملك هنا .. نفس النظرات الملهوفة التى تراها فى عيون من يحضرون حفلاً لـ (محمد منير) أو (عمرو دياب) .. غير أن هذا النجم لا يغنى لكنه يشع أفكارًا من حوله .. هذا هو مكمن القلق وقد أدركت على الفور أن هذا الرجل خطر ، ولابد أنه يسبب صداعًا للسلطات .. كل مفكر يجذب الشباب - من فجر التاريخ - يسبب حساسية لا شك فيها للحكومات .. عندها يكون الحل الوحيد شراءه أو إسكاته ..

سألها (سقراط) وهو يواصل مشيه السريع وسط البستان :

- « حسن .. أنت تبحثين عن السعادة .. فما هى السعادة ؟ »

فكرت قليلاً .. ثم قالت فى غيظ :

- « ظننتك ستخبرنى بهذا .. أنت الفيلسوف وأنا التلميذة الغبية لو لاحظت هذا .. »

قال باسمًا :

- « أنا لا أقدم إجابات .. لكننى ألقى أسئلة تحفز الناس على التفكير .. هذه هى مدرستى .. فلسفتى هى أن على الناس أن يفكروا ولا يقبلوا المسلمات .. والآن ما رأيك فى السعادة ؟ »

فكرت وهى تحك خدها .. لا بد أن إجابتها ستكون سخيفة على غرار :

- « السعادة هى اللذة .. »

- « ليكن .. السعادة هى اللذة .. لكن اللذة تتوقف على أشياء قد لا يمكن الحصول عليها .. فهل تفترضين أن الفقير أو الجائع لا يمكن أن يكون سعيدًا ؟ »

- « هناك فقراء سعداء .. لا أنكر هذا .. »

- « إذن .. لماذا لا تكون السعادة هى الاكتفاء بما لديك ؟ »

- « لا أدرى .. لكن ..... »

الحقيقة أنه بدأ يرهقها .. طريقة أن تبحث بنفسها عن إجابات ، بينما هى تعلمت منذ السنة الأولى الابتدائية أن الإجابات جاهزة فى الكتب .. ومن هى كى تبحث عن إجاباتها الخاصة ؟

أنقذها من الرد مرأى تلك المرأة العجوز تتقدم نحو الفيلسوف .. منحنية منكوشة الشعر بلا أسنان فى فمها المفتوح من فرط لهاث .. وتساءلت (عبير) فى سرها : من هذه ؟ هل هى (المدام) ؟ لو كانت هى فالرجل تعس الحظ فعلاً ..

لكن (سقراط) حل الموقف حين همس كالحالم :

ـ « عرافة (دلفى) هنا ؟ يا لجمالها ! لو كانت زوجتى تملك ربع سحرها ! »

هكذا لم تعد (عبير) تتمنى أن ترى زوجة (سقراط) !

تقترب عرافة (دلفى) وهى تتوكأ على غصن شجرة غليظ ، من (سقراط) .. فيصمت الجميع فى وجل وتهيب .. تقف أمامه وترفع نحوه عينين واهنتين .. ثم تلحق بالعينين إصبعًا راجفًا مدببًا كالمخلب وتهمس بصوت جدير بمنظرها :

ـ « (شقراط) !! أنت أحكم رجل على ظهر الأرض ! »

كانت هذه كل كلماتها .. فمن الواضح أنها لا تحب الكلام كثيرًا ...

ثم تستدير بمعجزة .. وتبتعد بذات الخطوات ..

تصايح التلاميذ فى مرح ، بمجرد أن ابتعد وجود المرأة الخانق :

ـ « عرافة (دلفى) لا تخطئ ! قالت إنك أحكم رجل على ظهر الأرض يا أستاذنا ! إنها لشهادة ثمينة ! »

كانت عيناه تتابعان العرافة فى إعجاب ، واحمرت أذناه من المجاملة .. لكنه قال فى ثقة :

ـ « هى مخطئة .. أنا أؤمن بأن العرافين على خطإ دائمًا .. وسأبرهن لكم على أنها مخطئة .. سأجد من هو أعظم منى حكمة الآن .. »

ثم نظر إلى أحد تلاميذه ، وسأله :

ـ « (بيلايس) .. هل تعرف لماذا وجد الكون ؟ »

فى أدب أطرق التلميذ برأسه وقال :

ـ « أعتقد هذا يا أستاذنا .. »

استدار الفيلسوف إلى تلميذ آخر وسأله :

ـ « (ألكبيادس) .. هل تعرف الغاية من وجودك ؟ »

قال (ألكبياس) فى ثقة التلميذ الذى استذكر درسه جيدًا :

ـ « طبعًا ... »

هنا لوح (سقراط) بيده فى إحباط وغمغم :

ـ « إذن يبدو أن العرافة محقة .. من العسير أن أجد واحدًا أكثر منى حكمة ! أنا جاهل مثلكم ولا أعرف شيئًا .. لكنى على الأقل أعرف مدى جهلى بينما أنتم لا تعرفون .. هذا بالفعل يجعلنى الأكثر حكمة ! »

وابتسمت (عبير) فى سرها .. لا يمكن التنبؤ أبدًا بردود هذا الرجل ، لكن لا شك فى أنه ممتع ، وأنه ذكى ، وأنه متواضع بدرجة جذابة .. ثم أسلوبه فى السخرية الذى اشتهر باسم (السخرية السقراطية) يفضح زيف الآخرين المعتدين بأنفسهم على الفور ..

اقترب أحد التلاميذ من (سقراط) وسأله :

ـ « هل تنصحنى بالزواج يا أستاذنا ؟ إنها تلك الفتاة ذات الضفيرة الشقراء التى ... »

قال له (سقراط) فى رفق :

ـ « تزوج يا بنى .. تزوج .. فلو كانت امرأتك صالحة لصرت رجلاً سعيدًا .. أما لو كانت شريرة لصرت فيلسوفًا مثلى ! »

ثم صعد على صخرة ليصير فى موضع أعلى يجعل الجميع يرونه وقال :

ـ « لا تعنينى فى شىء مواضيع الفلسفة المجردة .. مثل كيفية نشوء الكون وخامته الأصلية .. كل هذا كلام لن نصل فيه إلى حل .. ما يعنينى هو فهم الأخلاق .. فهم العدل .. فهم الصدق .. فهم الـ ... »

قالت (عبير) فى كياسة :

ـ « يا أستاذنا .. أنا أعانى مشكلة عاطفية معينة .. لم أرتكب أى خطأ لكن زوجى تخلى عنى .. لا أعرف السبب ولا أستطيع فلسفته أو التظاهر بأننى أقوى .. لولا بقية من وقار لارتميت على الأرض ورحت أركلها بقدمى وأعوى .. يقولون : إن الزمن يداوى كل شىء لكنى لا أستطيع أن أتحمل مروره .. »

حك (سقراط) صلعته ولحيته مفكرًا ، ثم قال :

ـ « الفلسفة لا تقدم حلاً للمشاكل العاطفية .. إنها أكثر شمولاً من باب (طبيب القلوب) فى مجلة نسائية .. إنها تتحدث عن أمور أكثر تجردًا .. مثلاً ما هو النسيان .. ما هو الزمن .. ما هو الظلم .. »

تبًا ! هى لا تريد من يعلمها الصيد ، بل هى فى حاجة عاجلة إلى من يعطيها سمكة وينتهى الأمر .. لا تريد معرفة ماهية الزمن .. تريد معرفة كيف يمر سريعًا ..

فى هذه اللحظة رأت حشدًا من الجنود المدججين بالسلاح يقتحمون الحديقة ..

تراجع التلاميذ فى رعب ، وتصايحوا ما الخطب .. لكن ضابطًا وسيمًا مغرورًا تقدم من (سقراط) فى حزم وقال :

ـ « (سقراط) .. إن الأوامر الصادرة لى هى أن أعتقلك .. »

لم يهتز الفيلسوف ، بل ضم ملاءته البيضاء على جسده النحيل وتساءل :

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

ـ « الحكومة تتهمك بإفساد شباب (أثينا) .. »

راح الشباب يتهامسون .. بدا على بعضهم الغضب ويبدو أنه كاد يتهور ويهاجم الجند ، لكن (سقراط) أشار بيده بحزم :

ـ « يجب احترام الحكومة وسلطة القانون .. هذا ما علمتكم إياه .. »

وكانت (عبير) تعرف سبب اعتقاله .. التهمة الظاهرة ـ وهى أتفه التهمتين ـ هى تعاونه مع الثلاثين طاغية .. وهم الإرهابيون الذين استولوا على السلطة فى (أثينا) لفترة ..

طبعًا بعدما أطاحت الحكومة الحالية بالثلاثين طاغية ، كان لابد من عقاب كل من اتصل بهم .. (سقراط) اتصل بهم بشكل سطحى لا يبرر اعتقاله ..

التهمة الخفية ـ والأهم ـ هى كما قلنا شعبيته الشديدة لدى شباب (أثينا) ، مما يجعله خطرًا لا تطمئن له أية سلطة .. إن الطغاة أغبياء فى كل شىء ، لكنهم فى هذه النقطة بالذات شديدو الذكاء والحرص .. وقد أبدى المخرج المشاغب (كروننبرج Kronenberg) إعجابه الشديد بذكاء الطغاة حين يشمون الخطر فى أفلام مخرج أو قصائد شاعر ، بينما النقاد غافلون عنه .. وقد تجاهل النقاد الألمان الفيلم السوفييتى الرائع (المدرعة بوتمكين Potemkin) ، فمن الذى شعر بأهميته وخطره ؟ (هتلر Hitler) شخصيًا !!

وهكذا مضى الفيلسوف الكبير مع الحراس ..

★ ★ ★

كانت محاكمة صورية .. محاكمة من الطراز الذى يهدف

إيجاد مبرر لحكم الإعدام لا أكثر .. لكن (سقراط) تكلم كثيرًا جدًا .. كأنه شعر بقرب النهاية فقرر أن يقول كل ما يريد قوله .. وكان أحد تلاميذه منهمكًا يدون كل حرف يقوله الفيلسوف الكبير ..

إنصافًا للحق يجب أن نقول إنهم كانوا مستعدين لتبرئته لو أعلن التوبة عن مبادئه ، لكنه كان مصرًا على هذه النقطة بالذات ولعله كان يريد التخلص من زوجته المشاكسة بأى ثمن ..

وأخيرًا صدر الحكم المرتقب :

ـ « حكمنا على (سقراط) بالإعدام بأن يشرب خلاصة (الشوكران) .. »

كان نبات (الشوكران) هو مشنقة ذلك العصر .. ولقد بكى التلاميذ كثيرًا وهللوا وأحدثوا صخبًا لا بأس به ، لكن (سقراط) كان واضحًا بصدد احترام قوانين الدولة ..

وتدخل (عبير) الزنزانة لتجد أنها رحبة أكثر من اللازم .. لا يمكن أن تكون زنزانة بكل من فيها من أحباب (سقراط) ورفاقه .. يمكنها أن تعد عشرين شخصًا باكيًا ..

جلس (سقراط) وسط المكان يضحك كأنه عريس ليلة زفافه ، ودنا منه شاب أصلع ملتح وهتف :

ـ « هلم يا أستاذنا .. إن الفرصة متاحة .. إن الشبه بيننا قوى .. فقط البس ثيابى وسوف تغادر الزنزانة .. لا أعتقد أنهم سيعدموننى لو عرفوا الحقيقة .. »

ضحك (سقراط) فى حزن وقال :

ـ « يا بنى أنت لا تفهم .. لو هربت لصار كل ما ناديت به فى حياتى هراء .. على الفيلسوف أن يموت وفقًا لمبادئه .. وأنا أمرتكم بطاعة القوانين مهما كانت جائرة أو ظالمة .. والآن هات الشوكران لى .. »

ناوله الحارس ضخم الجثة دامع العينين ـ هو الآخر ـ إناء من الفخار مليئًا بسائل قذر ..

أمسك الفيلسوف بالإناء وقربه من شفتيه وتذوقه :

ـ « ليس سيئًا لكن ربما لو أضفتم بعض السكر .. »

ـ « سنحاول تذكر ذلك عندما نعدم الفيلسوف التالى .. »

ثم نظر إلى أحد تلاميذه وقال :

ـ « ستجد عندى فى الدار ديكًا .. أرجو أن تعيده لصاحبه (بيلادس) .. »

لم تسمع (عبير) من قبل عن شخص يقترض ديكًا ..

إن هذه القصة مضرب المثل فى أمانة الفيلسوف ، لكننا نتذكر الملاحظة الذكية التى قالها الأديب العظيم (محمد عفيفى) من قبل : ماذا يفعل (سقراط) بالديك وهو كان ينهى عن أكل اللحوم ؟

على كل حال أفرغ (سقراط) الإناء فى جوفه ولعق شفتيه ، وسط بكاء تلاميذه .. وقال :

ـ « لا بأس .. إن السكر كان فى القاع من البـ ... »

ثم تهاوى رأسه وغاب عقله العظيم عن التفكير للمرة الأولى ..

نهضت (عبير) دامعة العينين وابتعدت عن المشهد ..

كان المشهد مؤثرًا .. لكنها لم تحصل على إجابة عن أسئلتها ، بالإضافة إلى غرابة هذا الفيلسوف الذى يقترض الديكة .. كل هذا يكفى ليخبرها أن (سقراط) لم يكن معلمها المنشود ..

فى الخارج كان التلميذ الذى كان يدون المحاكمات يقف دامع العينين وحده جوار عمود .. يعبث بلحيته كأنما هو يستنبط فلسفته الخاصة بسرعة ..

اقتربت لتتبادل الكلام معه ، لكنه رآها فكأنه رأى سحلية ذات رأسين .. صاح فى اشمئزاز :

ـ « أنت امرأة !! »

ـ « وأنت رجل .. لا مشكلة هنالك .. »

لكنه استدار ليقف وراء العمود ويفرغ معدته .. لم تكن تعتقد فى نفسها جمالاً خاصًا لكن ليس إلى هذا الحد ..

ـ « لا تحاولى التفاهم مع (أفلاطون Plato) .. إنه يمقت النساء كأنهن الطاعون .. »

كان القائل هو أحد التلاميذ الذين خرجوا من السجن .. كان شابًا نحيلاً تعس النظرات صادقها ..

نظرت للرجل المشمئز فى اهتمام .. إذن أنت (أفلاطون) الشهير .. الذى عذبنا كثيرًا فى المدرسة .. أنت رجل وسيم يبدو عليه الرقى والثراء .. له لحية قصيرة مهذبة بعناية .. لكن ما سر طباعك الغريبة هذه ؟

قال التلميذ الذى وجه لها النصح :

ـ « سوف ينشئ (أفلاطون) مدرسته الخاصة بعد موت أستاذه (سقراط) .. لكن ليس بوسعك التعلم فيها ما لم تصيرى رجلاً .. »

ـ « رجلاً ؟ وكيف ؟ »

نظر لها مفكرًا ، ثم قال :

ـ « لا توجد مشكلة .. سأجد لك حلاً سريعًا .. »

* * *

4- فى الأكاديمية ..

« لن يتحسن المجتمع ما لم يحصل الفلاسفة على سلطة سياسية ، أو يصبح السياسيون فلاسفة .. »

أفلاطون

★ ★ ★

الآن هى شاب وسيم كريم المحتد .. لقد قصت شعرها وحاولت أن تجعل صوتها يخشوشن ..

لقد عرفت أن (أفلاطون) ذا التفكير العملى قد أنشأ لنفسه مدرسة شهيرة فى (أثينا) هى الأكاديمية .. وأن عليها إذا أرادت أن تتعلم منه شيئًا أن تذهب إلى هناك ..

على الباب توجد لافتة كبيرة كتب عليها (ممنوع الدخول لمن ليس ملمًا بالهندسة) ..

هى لم تكن ملمة بالهندسة ، وقد فشل علم الرياضيات فى اقتحام أسوار مخها على مدى أعوام حياتها ، لكن ذلك الشاب الخدوم حذرها من شىء مماثل ، وقد اتخذت حيطتها ..

وعلى طريقة (فانتازيا) فى المزاح الثقيل ، وجدت على الباب رجل الأمن ببذلته الزرقاء يمسك بورقة ، رفعها نحو أنفها :

- « كيف يمكن تقسيم المثلث أ ب ج بخطين ، بحيث يكون الناتج خمسة مثلثات ، مساحة أصغرها عشر مساحة أ ب ج ؟ »

لم تفهم السؤال لكنها كانت تعرف الجواب عن ظهر قلب .. هذا الحارس لا يسأل إلا فى أربعة تمارين شهيرة ، وهكذا أمسكت بالقلم وقسمت المثلث فى المكان المطلوب ..

هتف الحارس الفظ :

- « برافوووو ! »

قالت فى تواضع مغرور :

- « هذا لا شىء .. أنا بارعة فى الرياضيات كلها .. »

- « ماذا ؟! »

هنا تذكرت أن ذكاءها خانها فقالت متداركة :

- « أنا بارع فى الرياضيات كلها .. »

فلو اتضح أنها أنثى لحملها الحارس من قذالها ليلقى بها فوق أقرب كومة قمامة ..

الحقيقة أن فلسفة (أفلاطون) كانت تعتمد على الرياضيات بشكل غير معقول .. إنها سبيله للسلام والانسجام مع حقائق

الكون ، وهو ما وجده بعد هذا بقرون فيلسوف بريطانى هو (برتراند راسل Russell) .. وقد كان يحتم ألا يدخل أكاديميته إلا من يعرف الهندسة .. لهذا كانت إجابتها هى (الكارنيه) المطلوب ، وسرعان ما أفسح لها الحارس الباب وهو يهز رأسه باحترام ..

ـ « أنا شاكرة لك ! »

ثم فطنت للأمر فأسرعت بالابتعاد عنه قبل أن تساوره الظنون .. من السهل على الرجل أن يتخلى عن رجولته بعض الوقت ليخدع الناس ، أما الأنثى فمن شبه المستحيل أن تنسى أنوثتها .. ولهذا بدا كل من مثل دور الأنثى حتى (إسماعيل يس) نفسه مقنعًا ، بينما لم تكن أية ممثلة مقنعة فى دور الرجل ..

هكذا وجدت نفسها تمشى وسط حشد من الشباب لتدخل ما بدا لها كحديقة عامة أنيقة .. ما الذى يقدمه لها (أفلاطون) ؟

لقد صارت الفلسفة منظمة أكثر .. لها شكل محترم كأنها جامعة ..

دنا منها أحد الشباب ، وكان منهمكًا فى قضم تفاحة وهو يلهث كى يلحق بها ، وسألها :

ـ « من أنت أيها الشاب ؟ من أين أتيت ؟ »

فكرت (عبير) لحظة ثم قالت أول ما خطر بذهنها :

ـ « أنا (أبيروس) من (كريت) .. »

ـ « وأنا (مينوس) من (أثينا) .. هلا أسرعت قليلاً ؟ لقد تأخرنا .. »

وتصافح الاثنان دون أن يكفا عن الهرولة ..

رأت (عبير) أن الفيلسوف ـ الذى صار كبيرًا ـ يمشى وسط تلاميذه .. واضح أن لياقة هؤلاء الفلاسفة اليونان عالية جدًا ، لأن كل محاوراتهم تتم أثناء المشى .. يروحون ويجيئون ولا يجلسون أبدًا .. فيما بعد ستتبلور هذه الطريقة أكثر مع (أرسطو Aristotle) ولسوف يمشى الفيلسوف مسافات شاسعة لم يمشها جمل فى صحراء ، ولهذا سيطلق المؤرخون عليهم اسم (الرواقيون) لأنهم لا يكفون عن الفلسفة وهم يمشون فى الأروقة ..

دنت أكثر لتسمع ما يقول :

ـ « لقد رأيت إعدام أستاذى (سقراط) ، فلم أتحمل .. هكذا قررت شيئين : أولاً أن أدافع عنه وأنشر نص محاكمته .. ثانيًا أن أكون فلسفتى الخاصة .. وأن أنشئ هذه الأكاديمية ليتعلم فيها الساسة الفلسفة .. لو تعلم الساسة الفلسفة لعمت الحكمة ولما وقع الظلم .. ولما أعدم شخص مثل (سقراط) .. »

إذن هذا المكان يربى من سيصيرون حكامًا يومًا ما .. كأنه (بكالوريوس فى حكم الشعوب) كماتدعى المسرحية الشهيرة ..

ومشى والتلاميذ وراءه وهو يواصل الكلام :

- « هذه الشجرة لاوجود لها .. هذا العمود ليس هنا .. إنهما انعكاسان لشجرة أخرى وعمود آخر موجودين فى عالم المثل .. »

نظرت (عبير) إلى الشجرة والعمود .. هذان انعكاسان ! هذا هو الشىء الذى لا تبتلعه فى الفلسفة .. هذا عمود له وزن وسمك ويشغل حيزًا من الفراغ ، وبرغم هذا يصر هذا الأخ على أنه انعكاس .. لكنها لاتعرف أن هذه هى عقيدة الأشكال Doctrine of Forms وهى جزء أساسى من فلسفة (أفلاطون) ..

مشى (أفلاطون) مسرعًا إلى مكان آخر من الأكاديمية ، فلحق به التلاميذ لاهثين .. قال وهو يشير إلى صخرة :

- « هل ترون هذه الصخرة ؟ »

تصايح الجميع فى بلاهة :

- « نعم ! »

- « يالكم من حمقى ! بل تتخيلون أنكم ترونها ! لو قرأتم كتابى (الجمهورية) لعرفتم أنها وهم لا وجود له .. »

وهنا تعثرت قدمه فهوى على الأرض ليرتطم رأسه بالصخرة .. سرعان ما راح يعوى ألمًا والدم يسيل من جبهته .. كادت (عبير) تنفجر ضحكًا .. لم تر من قبل ظلاً يجرح الرأس .. لكنه واصل الشرح :

- « هذا وهم .. والدم الذى يسيل من جبهتى وهم .. مجرد ظلال من عالم المثل العليا .. هناك عالم عقلى وعالم مادى .. ما نراه فى العالم المادى وما تشعر به الحواس هو مجرد ظل غير متقن لعالم عقلانى فيه كل شىء جميل متقن .. »

تخيلت (عبير) أنها مجرد ظل لـ (عبير) أخرى بارعة الجمال تعيش فى عالم المثاليات .. (عبير) قوية لا يتخلى عنها الناس وتعرف كل شىء .. فكرة لا بأس بها ، لكن كيف تنتصر هذه الـ (عبير) وكيف تجد مكانها إلى عالمنا هذا ؟

- « بالرياضيات ! »

قالها (أفلاطون) فى ثقة :

- « الرياضيات هى الشىء الوحيد المحكم فى العالم .. إن الظلال التى تسقط علينا تتغير من وقت لآخر أما الرياضيات فهى النافذة الوحيدة المتاحة لنا على عالم المثاليات .. »

فهمت (عبير) .. هذا هو السبب فى امتحان الهندسة الذى اجتازته قبل دخولها هنا ..

مشى (أفلاطون) إلى مكان آخر فى الأكاديمية .. هنا شعرت أن ساقها تقلصت .. أصيبت بـ (كرامب) محترم كأنها تلعب فى نهائى الكأس ، إلا أنها تحاملت على نفسها .. ويبدو أن اثنين من التلاميذ أصيبا بنوبات قلبية وماتا .. رحلا إلى عالم المثاليات لحسن حظهما ..

وواصل (أفلاطون) الكلام وهو يجد السير :

ـ « نحن نعيش فى كهف .. وما نراه على جدران الكهف هو ظلال الحقائق .. فقط الفيلسوف هو من يستطيع اختراق هذا الكهف ليرى الحقيقة ! »

ثم أشار إلى التلاميذ وهتف :

ـ « على ذى العقل والحكمة أن يحكم الجموع التى لا تعنيها إلا المسرات الأرضية الزائلة .. وعلى الفنون أن تخضع لغرض تعليم الحق والخير والجمال .. يجب على الفن أن يخصص لتثقيف الشباب .. »

فى هذه اللحظة رأت شابًا يركض وعباءته الإغريقية بين أسنانه ، بينما يركض من ورائه حشد من الفتية يتصايحون بالإغريقية :

ـ « حرااااامى .. حرااااامى ! »

لم يبد لها الفتى قادمًا من عالم الأخلاق المثالية إلى هذا الحد .. وكاد التلاميذ يلحقون به ليرسلوه لعالم المثل ، مع قدر لا بأس به من الإشباع السادى .. لكن (أفلاطون) صاح فى وقار إغريقى :

ـ « اتركوه ! فالمرء لا يرتكب الرذيلة عامدًا أبدًا ! »

هكذا وقف الفتية مرغمين ، بالرغم من أنهم يتحرقون شوقًا لإرسال اللص إلى عالم المثل كما قلنا ، لكن هذا أثار حيرة (عبير) :

ـ « تريد القول إن خطايانا ليست باختيارنا ؟ »

قالتها بأغلظ صوت وجدته فى حنجرتها ، فقال (أفلاطون) باسمًا :

ـ « أؤمن بهذا كما آمن به (سقراط) العظيم .. الحمقى يطلقون على هذا مصطلح (التناقض السقراطى) .. لكنى أؤمن به .. على هذا الفتى أن يطهر نفسه بالرياضيات والفلسفة .. فإن لم يستطع مات ليعود للحياة حيوانًا أو امرأة ! »

غلى الدم فى عروقها .. لم تتلق أنوثتها إهانة كهذه من قبل ، ومنذ أسقطها كوع أحد المتزاحمين فى الحافلة لتسقط على الأرض .. هذا الرجل ـ (أفلاطون) ـ يجمع بين الحيوان والمرأة فى سلة واحدة ..

قالت له بصوت يكاد الثلج يتساقط منه كما يحدث فى القصص المصورة :

ـ « أنت لا تميل للنساء كثيرًا .. »

قال بفخر وهو يمسح الدم الذى يسيل :

ـ « بل وأشمئز منهن .. الشخص الوحيد الجدير بالصداقة هو الشاب المهذب الوسيم .. »

ثم قال لها فى رفق :

ـ « بالمناسبة .. أنا لم ألقك من قبل فى الأكاديمية أيها الشاب اللطيف .. »

لم تعد تشعر براحة مع هذا الرجل .. وتذكرت كيف سيطلق الأدباء اسم (الحب الأفلاطونى) على الحب الطاهر بين فتى وفتاة .. بينما التعبير الأدق (الحب العذرى) نسبة لقبيلة (عذرة) العربية .. أما هذا الأفلاطون ففيه شىء لا يبعث الراحة .. لم تشعر راحة قط فى التعامل مع أى رجل له هذا الشارب الرفيع المنمق ، ويبدو أنها كانت على حق ..

طبعًا لا جدوى من استشارته فى مشكلتها .. أولاً لن تخبره بأنها فتاة ـ برغم أن هذا أكثر أمنًا ـ ثانيًا لن تجد لديه

إلا بعض النصائح .. هى ليست هى و(شريف) ليس (شريف) و(رانيا) ليست (رانيا) .. كلهم ظلال من أشخاص آخرين رائعين فى عالم المثاليات .. وما عليها إلا أن تنغمس فى الهندسة والرياضيات لتشعر بسعادة ..

دنا منها (مينوس) زميلها فى الأكاديمية ، وهمس فى أذنها وهو يدلك ساقه متألمًا :

ـ « بينى وبينك .. أنا أيضًا غير مستريح لهذا المتحذلق .. ما رأيك فى أن نجرب مدرسة أخرى ؟ »

ـ « بالطبع .. لكن هل هناك مدارس قريبة ؟ »

ضحك كثيرًا وقال :

ـ « نحن فى اليونان .. حيث تنتشر مدارس الفلسفة انتشار مقاهى الإنترنت أو (أكشاك السجائر) فى عالمكم .. على الناصية سنجد (الليسيوم Lyceum) .. »

ـ « ومن فى هذا (الليسيوم) ؟ »

ـ « واحد آخر كان تلميذًا لـ (أفلاطون) ثم كون مدرسته الخاصة .. إنه (أرسطو) !! »

* * *

5- فى الليسـيه ..

« كل منا منذ ولادته إما أفلاطونى وإما أرسطوطالى .. »

كولردج

★ ★ ★

ما إن خرجت من الأكاديمية حتى تحررت من تمثيل دور الرجـل ، وأمام عينـى الفتـى المذهولتيـن أدرك أن زميلـه (مينوس) فتاة جميلة .. فصاح فى عجب :

«لو عرف (أفلاطون) لفتك بك ! »

- «لكنه لم يعرف .. كان لا بد أن أسمع ما يقال فى هـذه الأكاديمية . »

- «مادمت بهذا الجمال ، لماذا لم تنضمى إلى (الأبيقوريين) . »

- « لا أعرفهم .. المهم ألا يكون (أرسطو) من أعداء المرأة . »

- « لا .. هو رجل متفتح الذهن ، ومشكلته الوحيدة أنـه يمشى أكثر مـن (أفلاطـون) .. سنفقد بضعـة كيلوجرامـات فى عملية تعلم الفلسفة هذه . »

هكذا دخل الاثنـان إلى مدرسة (أرسطو) .. لقد أنشأها أولاً قرب معبد يدعى (أبوللو ليكياس) أى (الذى يذبح الذئب) .. وسـرعان مـا صـار اسم المدرسـة هو (ليسيوم Lyceum) .. وهـى الكلمـة التـى تطـورت إلـى (ليسـيه Lycee) كما تنطقها كل فتاة (فخوغ بتغبيتها الفغنسية) ..

أهم ما فى الموضوع هو أن هنـاك تذاكر ورسمًا للدخول .. يبدو أن الأخ (أرسطو) فيلسوف عظيم لكن الفلسفة لـم تنزع منه الرغبة فى جمع بعض المال .. وهى لم تسمع قط عن فيلسوف ورجل أعمال بارع ، لكنها الحقيقية .

كان الأمر فى الداخل يشبه مسيرة جنـازة لميت مشتـاق إلى ظلمات القبر .. عدد لا بـأس بـه مـن التلاميذ يمشـون وراء رجل .. والموكب كله جدير بسباقات (المـارثون) .. أخذت (عبير) شـهيقًا عميقـًا ولحقـت بالماشـين ، وكـان (أرسطو) كمـا تخيلتـه بالضـبط .. كـل هـؤلاء الفلاسـفة اليونـان يتشابهون على كل حال ، ويصلحـون لقطـع نصفهـم الأعلى ليكون تمثالاً ..

كـان هنـاك صبى يمشى مع الماشين وهـو يلعب بسـيف خشبى صغير ، ولم تنتبه إلا بعد أن داست قدمه .. صاح فى غضب والكثير من الوقاحة :

- « لا بد أنك عمياء أو بلهاء .. »

ودت لو تعتذر لكن وقاحته لم تترك لها فرصة .. قال لها فى تحد وعيناه الصغيرتان تحاولان تمزيقها :

ـ «لو عرف أبى فلن ترى يومًا آخر ! »

قررت أن تتوكل على اللّه وتعتصر أذنه ، لولا أن سمعت (أرسطو) يناديه :

ـ «ولد ! تعال هنا وأصغ للدرس ! »

نظر لها الصبى متوعدًا ثم لحق بالمعلم وسط الزحام .

قال لها (مينوس) فى رعب :

ـ « هذا الصبى ذو نفوذ .. لا تحاولى أن تعبثى معه .. »

لكنها لم تكن تتحمل قلة الأدب فى الصبية ، إن لم تكن لا تتحمل الصبية أصلاً .. المرء يتحمل كافة المشاق فى حياته فمن العسير أن تطالبه أيضًا بتحمل هذه الصراصير الآدمية ..

كان (أرسطو) يتكلم فى كل شىء تقريبًا ، ويثب من موضوع لآخر .. يتحدث فى العلوم والفلك والطب والدين .. فلا غرابة أن آراءه ظلت تسيطر على أوروبا فترة لا بأس بها .. والذى يثير الغيظ هنا هو أنه كان يضع القواعد العلمية من مكانه ومن دون تجريب .. هكذا كاد (جاليليو Galileo) يفقد رأسه لأنه خالفه .. ولم تتقدم أوروبا إلا حين تعلمت أن تتحرر من ربقته ..

إن الفارق الأساسى بين (أرسطو) و(أفلاطون) هو أن (أرسطو) اهتم بالعلم المادى وحياتنا ، بينما (أفلاطون) قضى وقتًا أكثر من اللازم مع المثل ..

ـ « الشمس تدور حول الأرض ، وعدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل ، والضوء يخرج من العينين ليسقط على الموجودات ، والشرايين تنقل الهواء لهذا أسميتها Artery .. »

هكذا ببساطة كان (أرسطو) يصدر أحكامه بلا انقطاع .. ويصل إلى حلول نهائية لأمور أرقت العلماء أجيالاً .. واحتاج الأمر إلى قرون حتى يظهر (كوبرنيكوس Copernicus) عالم الفلك و(فيساليوس Vesalius) رائد التشريح و(ابن الهيثم) علامة البصريات و(ابن النفيس) مكتشف الدورة الرئوية ليبرهنوا ـ بالترتيب ـ على خطأ كل واحدة من هذه (الفتاوى الأرسطوطالية) ..

لكن الطلبة يكتبون ما يقول كالمحمومين وهم يمشون وراءه ، محاولين ألا تنزلق أقدامهم فى صنادلهم الإغريقية المبللة بالعرق ..

ـ « لقد قمت بوضع علم المنطق .. عليكم دراسته جيدًا لتفهموا كيف تقود مقدمتان منطقيتان إلى نتيجة .. هذا هو أسلوب القياس المنطقى .. ومن لم يفهمه يمكنه الاتصال بسكرتيرتى للحصول على درس خصوصى فأنا لن أعيد ما قلته من قبل .. »

ثم أشار إلى عمود فى المدرسة وقال :

ـ « هذا العمود هو خليط بين الواقع والإمكانية .. خليط مما يمكن أن يكونه لكنه لم يصره بعد ، ومما هو عليه فعلاً .. كل شىء يتغير فى العالم ما عدا العقل الإنسانى والمثل .. »

شعرت (عبير) بأنها متخلفة عقليًا .. لا تفهم شيئًا على الإطلاق من هذا الكلام .. لكن من الجلى أنه مهم جدًّا لأن الطلبة يكتبون كالملسوعين ، وبعضهم سال الدمع من عينيه وبعضهم راح يهتف فى لوعة : يا عينى ! أعد !

إذن هى الجاهلة الوحيدة فى هذه المدرسة ..

اصطدمت بالصبى من جديد ، فنظر لها فى حدة ، ثم بصق على ثوبها وركض قبل أن تفتك به ..

ـ « الروح البشرية هى أعلى شىء فى الكون ، وهى التى تدور فى قلب المجرة للأبد بإرادة إلهية .. والقواعد الأخلاقية تقودنا إلى حياة أسعد وأكثر اكتمالاً وأقرب إلى الشكل الكروى ، الذى اعتبره أكمل الأشياء .. والفن هو طريقة للمتعة لا التعليم كما كان (أفلاطون) يقول .. لا قيمة لفن غير ممتع .. ومن لم يفهم هذا الجزء يمكنه الاتصال بسكرتيرتى للحصول على درس خصوصى فأنا لن أعيد ما قلته من قبل .. »

كان الرجل لا يكف عن الكلام .. يبدو أنه من الطراز الذى يهوى سماع صوته ..

سألته (عبير) حين استطاعت الدنو منه :

ـ « أيها المعلم .. لقد تخلى عنى من أحببت بلا سبب واضح .. فقط لأننى أنا .. كيف أجد فى الفلسفة عزاء عن شىء كهذا ؟ »

قال دون أن ينظر لها وهو يواصل المشى :

ـ « حين تموتين ستدور روحك السامية للأبد بين النجوم .. أليس هذا عزاء كافيًا ؟ »

لم تدر ما تقول .. هل ينوى أن يعيش هو وسط النجوم مع كل المال الذى جمعه ؟ هزت رأسها فى حرج .. و ... آى !

اصطدمت قطعة الحجر بجبهتها .. وإذ نظرت لمصدرها وهى تتحسس موضع الإصابة المؤلم ، وجدت ذلك الغلام المزعج يخرج لها لسانه ، وهو يعيد حشو مقلاعه ..

هذه المرة لم تهتم بسؤال (أرسطو) عن أساليب التربية ولا الطرق المثلى لتفادى الألم .. كان هناك شىء واحد تشتهيه وقد فعلته .. جرت الصبى خلف عمود حجرى ، وبدأت مهمة تحطيم كفيها على عظامه ..

رباه ! كان هذا ممتعًا وتمنت لو يستمر للأبد .. صحيح إن الوغد يعض ويخمش ويسب سبابًا يونانيًّا بذيئًا جدًّا ،

لكن هذا كان يزيد حماسها .. تضرب فيشتم فيزداد حماسها لمزيد من الضرب .. هذا نوع من التطهير النفسى لن تعيش مثله مهما شاهدت من مسرحيات إغريقية ..

فى النهاية تركته قطعة من العجين خلف العمود ولحقت بالفيلسوف الكبير الذى بلغ نهاية المدرسة فعاد مع من حوله يقطع نفس المسافة ..

هنا اندفع إلى داخل الرواق طالب ممتقع الوجه ، وصاح فى هلع :

ـ «أيها المعلم ! إن فيلقًا من جيش (مقدونيا) يقف بالخارج ! »

بدا الرعب على (أرسطو) وتساءل فى قلق :

ـ «والسبب ؟ »

ـ «(فيليب الثانى) ملك (مقدونيا) سمع أن هناك من ضرب ابنه فى المدرسة ! لقد جاء كى (يجيب) عليها واطيها) ! »

لطم الفيلسوف على خديه .. بينما مالت (عبير) تسأل (مينوس) :

ـ «ابن ملك هنا ؟ من هو ؟ »

ـ «الصبى الذى كنت تتشاجرين معه ! إنه (الإسكندر الأكبر) ! ألم تعرفى إنه تلميذ (أرسطو) ؟ »

يا للكارثة !

حين تضرب صبيًا يجب أن تتأكد من شخصية أبيه .. وهى لم تكن تعرف شخصية ذلك الصبى المزعج ، الذى يبدو أنه لن يتعلم شيئًا من أستاذه الكبير .. وها هو ذا (فيليب الثانى) ملك (مقدونيا) يتصرف كأى بلطجى سمع أن ابنه ضرب فى المدرسة .. طبعًا لن يصعب على الصبى تسليمها للأب الغاضب !

الصبى المزعج ينفجر فى بكاء تمثيلى كأنما هناك من ذبحه .. ويجرى إلى الباب صارخًا :

ـ «باباااااااااااااااااااا ! »

نظرت حولها فلم تر أن أحدًا يراقبها .. الكل مشغول بالكارثة الواقفة خارج باب المدرسة .. هكذا توكلت على الله .. اتجهت إلى السور وتسلقته .. أسوار المدارس خلقت لتسلقها والفرار منذ فجر التاريخ .. لعلها أول طالب يثب من فوق سور المدرسة فى التاريخ ..

هوب ! سرعان ماوصلت أعلى السور فثنت ساقيها ووثبت .

ووجدت نفسها ملقاة على العشب بالخارج ..

لا وقت للمزاح .. يجب أن تواصل الركض ..

★ ★ ★

6 ـ فلاسفة من كل صنف ..

« أنا مواطن عالمى .. وهذا يجعل من نفيى ضربًا من المستحيل .. »

ديوجين

★ ★ ★

كان الحشد يقف حول الفيلسوف فى الطريق العام كأنما هو يبيع بيضًا طازجًا .. الرجل نفسه كان ضخم الجثة يتحدث فى حماس ..

ودنت (عبير) أكثر وسط كل هذه العباءات الإغريقية ، فاستطاعت أن تسمع طرفًا من المحادثة :

ـ « إذن البرغوث يقدم لنا خدمة جليلة .. لأنه يزيل الدم الزائد من أجسادنا ويرغمنا على الاستحمام .. وبفضله يضطر الناس إلى استبدال ثيابهم ، وهكذا وجدت كلمة (نظافة) .. »

سأله أحد الواقفين فى حيرة :

ـ « لكن لو لم توجد براغيث لما وجدت كلمة (قذارة) .. والأشياء بأضدادها .. لو لم توجد قذارة لما صارت هناك ضرورة للنظافة من الأصل .. »

قال الفيلسوف ضاحكًا :

ـ « وهذا يؤكد ما سبق أن قلته .. البراغيث لا أهمية لها ومن دونها يصير الكون أفضل .. لولا المرض ما وجد العلاج .. لكن لماذا وجد المرض أصلاً ؟ »

هتفت (عبير) من بين أسنانها فى غيظ :

ـ « ما هذه السفسطة ؟ »

هنا سمعت صوتًا متحمسًا يقول من خلفها :

ـ « بالفعل هؤلاء هم السفسطائيون Sophists .. وهذا هو (بروتاجوراس Protagoras) من أهم فلاسفتهم .. »

أدركت أن هذا هو (مينوس) .. لا تعرف متى جاء .. إنه معها طيلة الوقت ..

قالت له همسًا :

ـ « ما الممتع فى هذا الأمر ؟ إنه يثبت ما ينفيه وينفى ما أثبته بنفس الحماس والحجة المقنعة .. »

ـ « إنه بائع كلام شديد البراعة .. وهم يحيلون الفلسفة إلى نوع من استعراض العضلات العقلى .. لهذا ستشيع كلمة (السفسطة) فى كل اللغات .. »

ـ إن السفسطة أصلاً لفظة معناها (المهارة) .. لكن هؤلاء

السفسطائيين قد اعتبروا أن الإنسان هو مصدر كل قياس .. والحقائق كلها تعتمد على قدرته على البرهنة عليها .. لو استطاع السفسطائى أن يبرهن لك على أن الشمس تشرق من الغرب ، فالأمر كذا .. وعليك أن تقبل به كحقيقة علمية .. »

لهذا كتب السفسطائيون فى أمور عديدة ، وليس موضوع (مدح البراغيث) هذا مزاحًا بل هو موضوع حقيقى ..

إن من قرءوا التراث العربى جيدًا يتذكرون على الفور كتاب (المحاسن والأضداد) لـ (جاحظ) .. كما أن من قرءوا (مجمع الأحياء) للعقاد سيتذكرون هذا الأسلوب . أنت تقرأ الكتاب لتقتنع بألف رأى كلها يناقض بعضها .. وفى النهاية تشك فى قدراتك العقلية أصلاً .. هل أنت بهذه السذاجة حقًا ؟ هل تملك رأيًا كما كنت تعتقد فى نفسك ؟

شعرت (عبير) بالضيق من الزحام فابتعدت قليلاً ..

هناك كان حفل صاخب .. موسيقا صاخبة تعلو فلا تسمع صوتك .. وفتيات فاتنات يرقصن بالدفوف ، بينما ضحكات خليعة تنبعث من داخل خيمة .. وخرج شاب يحمل فخذ خروف ، ودنا من الخمر يحاول أن يشرب منه لكنه فى حالة سكر تجعل التصويب مستحيلاً .. لهذا ارتوت الأرض بالخمر حتى راحت تترنح بدورها ..

حين رآها لوح بما بقى فى الدن وصاح :

- « هلمى .. هلمى ! إن المدرسة الذرية ستبدأ ! »

لم تفهم عم يتحدث .. إلا أنها قررت أن تلقى نظرة فضول على ما يدور بالداخل .. هذه على الأرجح حانة أو مباءة ما .. ولكن المشهد بالداخل كان يفوق الوصف .. إنه حفل لهو من حفلات كفار الجاهلية كما تراهم فى السينما المصرية ، حتى توقعت أن يبرز (أبو لهب) فى أية لحظة ليقول : تبًا للعبيد !

مالت تسأل أحد الفتية الجالسين الغارقين فى السكر ففوجئت بأنه (مينوس) ذاته .. لا بأس .. هى على الأقل تعرفه .. قال لها وهو يقاوم نوبة فواق :

- « هذه .. هئ .. مدرسة .. (أبيقور Epicurus) .. للفلـ .. هئ .. فلسـ .. فلسـ .. »

أدركت أنه سيقضى بقية الليل محاولاً نطق كلمة (فلسفة) فقررت أن تتركه وتقترب من (المطعم) لتتعرف فلسفته .. هذه مدرسة ؟ حقًا ليست هناك نهاية لما يراه المرء من غرائب ..

على كل حال كانت متأكدة من أن حل مشاكلها ليس هنا .. لا تتصور أن تغرق أحزانها فى دن من الخمر وسط الحسناوات .. خاصة أن الحسناوات لا يمثلن لها شيئًا بالطبع ..

قال (أبيقور) الذى كان يضع عنقود عنب خلف أذنه ، ويحمل كأسًا عملاقًا :

ـ « الهدف الوحيد للحياة هو الحصول على أكبر قدر من اللذة .. إنكم ستغرقون فى اللذات حتى تكتفوا وبعدها تتعلمون إن السعادة هى الحركة الهادئة المنتظمة وعدم وجود ألم .. إننى أتفق مع (ديمقريطس Democritus) فى أن كل شىء فى الكون يتكون من ذرات .. وهذه الذرات تتحرك حركة منتظمة لأسفل ، لكن بعضها يتحرك حركة عشوائية ، وهنا يأتى دور الإرادة .. عليك أن تختار اتجاه ذراتك .. »

هكذا فهمت (عبير) سر وصف (الذرى) الذى يلحق باسم هذه المدرسة .. يبدو أن أول وصف للذرات جاء على لسان (ديمقريطس) ، ثم تبناه (أبيقور) ، فمن حسن حظ هؤلاء إن الولايات المتحدة لم تكن موجودة فى عصرهم ، وإلا لخضعت مدراسهم للتفتيش ..

نهض أحد الرجال وصاح فى حماس :

ـ « بحق (زيوس) أنت تتكلم كلامًا صائبًا .. »

سألته (عبير) باهتمام :

ـ « جميل .. ما معنى ما يقول ؟ »

ـ « لا أعرف لكنه يبدو صائبًا بما يكفى .. »

ومد يده يمسك بمعصمها ، وقال فى حماس فلسفى :

ـ « لماذا لا تجلسين معى أيتها الحسناء نناقش مذهب (أبيقور) ؟ »

هوت الصفعة على وجهه وقبل أن يفهم ما يحدث كانت (عبير) قد غادرت (المدرسة) وقد قررت فى نفسها أن الفلسفة الأبيقورية لا تناسبها كثيرًا .. بل إن لفظة (أبيقور) ذاتها لها رنين حيوانى شهوانى معين ، تسمعه كأنما هى تسمع سبة بذيئة ..

★ ★ ★

قابلت بعض الرواقيين Stoics وهم سادة المشى .. تلاميذ الفيلسوف (زينو Zeno) الذين يؤمنون بأن اللامبالاة هى الحل .. لا ألم ولا فرحة ولا رغبة .. لم تحب فلسفتهم كثيرًا خاصة مع كل هذا المشى وفضلت البحث عن خيار آخر .

أما عن الفيثاغورثيين ، فحدث ولا حرج .. لا شك أنك تلقيت بعض ضربات فى المدرسة بسبب نظرية (فيثاغورس Pytahgoras) عن المربع على وتر المثلث الذى تساوى مساحته المربعين المرسومين على الوترين الآخرين ..

كان الفيثاغورثيون قد كونوا نظرة متكاملة للكون تمزج بين الرياضيات والهندسة والموسيقا .. إن حركة الكون تتم بنفس القواعد الموسيقية .. والأرقام يكمن فيها سر كل شىء .. بالذات رقم عشرة هو رقم مبارك يحمل الكثير من الأسرار .. والسبيل الوحيد لتطهير النفس هو دراسة الموسيقا والرياضيات .. ولا بد ـ كالعادة ـ من الامتناع عن أكل اللحوم وترك الشهوات جميعًا حتى الحلال منها ..

كما لاحظ الساخر (محمد عفيفى) : المسألة ليست لعبًا إذن .. ومن المستحيل أن يقابل المرء فى هذه البلاد من يسمح لى بأكل الفراخ دعك من لمسها أصلاً !

وفى جولتها الطويلة فى (أثينا) مرت بمجموعة من الفلاسفة أو التلاميذ يقفون فوق مرتفع .. المثير فى الموضوع ليس ما يفعلون بل ما لا يفعلون ..

فعند نهاية الطريق كانت هناك هاوية .. وكان أحدهم يمشى فى خطوات ثابتة نحوها .. توقعت أن يتوقف لكنه لم يفعل ..

جذبت أحد الواقفين من كمه وهتفت :

ـ « إنه يتجه للهاوية ! »

نظر إلى حيث أشارت ثم قال فى ملل :

ـ « لسنا متأكدين من هذا .. »

ـ « سيهشم عنقه ! »

ـ « هذا شىء لا يمكن إثباته إلا لو حطم عنقه .. وعندها يكون استنتاجك محتملاً لكنه ليس حتميًا ! »

أنتم مخابيل ! هكذا قالت فى سرها وعلانيتها .. ثم فارقته وركضت نحو الرجل الذى بلغ حافة الهاوية فانتزعته من عباءته الإغريقية وجرته إلى الوراء .. لقد تبدل اتجاهه فاكتفى بأن واصل المشى فى اتجاه آخر كما تفعل لعب الأطفال حين تصطدم بجدار .. كأن قدميه تتحركان حركة آلية لا علاقة لها به(*) ..

نجحت فى تغيير اتجاهه ليواجهها .. وفى النهاية قالت له ما معناه (إيه اللى بتهببه ده ؟) .. فاكتفى بأن هز رأسه وداعب لحيته وقال :

ـ « أنا لست مجنونًا .. أنا الفيلسوف (بيرو Pyrrho) .. أو هذا ما أعتقده »

ـ « تشرفنا .. لكن هذا لا يبرر أن تمشى للهاوية فى غباء كسحلفاة الصحراء .. »

(★) الحادثة حقيقية !

ـ « لا يمكن التأكد من شىء .. الإنسان غير مؤهل لمعرفة شىء عن يقين .. هذا هو مذهبى .. لا يمكنك التأكد من إن السقوط من فوق الهاوية يمكن أن يؤذينى .. أنا لا أعرف ، أنت لا تعرفين .. »

ـ « الخبرة تقول إن من يسقط من الهاوية يمت .. »

ـ « الخبرة لا قيمة لها بعقلنا القاصر .. هذا جوهر مذهب الشك Skepticism .. وهؤلاء هم المتشككون من تلاميذى .. »

ثم التفت إلى تلاميذه (الشكوكيين) ليسألهم بصوت عال :

ـ « هل الطقس بارد يا شباب ؟ »

قالوا بصوت واحد متحمس :

ـ « لا نعرف .. »

ـ « هل حار يا شباب ؟ »

ـ « لا نملك القدرة على إعطاء رأى كهذا .. »

أشرق وجهه بالرضا وقال لها :

ـ « كنت أتمنى أن أقول إنهم عباقرة .. ولكنى لست حكيمًا إلى هذه الدرجة بالطبع .. »

كان هذا كافيًا كى تتركهم وتنصرف ..

يبدو أن اليونان فى هذا العصر كانت مستشفى مجاذيب عملاقًا .. هذا رأى (عبير) بالطبع وليس رأى كاتب هذه السطور .. لماذا ليس رأيه ؟ لأنه ليس مؤهلاً لإعطاء رأى فى أى شىء طبعًا !

★ ★ ★

قابلها (مينوس) وهى تمشى جوار أحد الأسواق هناك .. كان يقضم تفاحة ويحمل رزمة من الأوراق تحت إبطه .. قال لها فى استمتاع :

ـ « كيف الحال ؟ هل عرفت نفسك وفهمت أسرار الكون ؟ »

ـ « لا أعرف إلا أن رأسى موشك على الانفجار .. »

قال فى جدية وهو يجد السير مبتعدًا :

ـ « إن نادى الفلاسفة أعد لك امتحانًا عسيرًا فى نهاية (الكورس) .. فخذى الحذر .. يجب أن تصلى إلى الحقيقة سريعًا .. »

ثم اختفى وسط مجموعة من عربات الفاكهة ..

كان الليل قد جاء ، واستطاعت أن تجد خانًا إغريقيًا صغيرًا يقدم لضيوفه عشاء فلسفيًا ممتازًا ، يتكون من الجبن القديم والزيتون ..

وهنا عرفت (عبير) إن هؤلاء القوم منظمون حقًا .. عليها أن تكتب اسمها فى دفتر الخان .. وتحت الاسم تكتب .. لا ليس عملها ولا دينها ولا رقم بطاقتها .. بل مذهبها الفلسفى .. هكذا رفعت عينيها فى دهشة متسائلة ..

قال الخواجة (خريستو) صاحب الخان ، وهو يشبه (البارمان الإجريجى) فى أفلامنا العربية إياها :

ـ « هذا من أجل راحتك خبيبى .. لو كنت من أتباع (أبيقور) تأكدنا من أن الحجرة مزودة بالمعازف وأدوات اللهو وما إلى ذلك .. لو كنت من الكلبيين فرشنا لك خرقة على الباب ووضعنا لك قطعة من العظم فى وعاء مهشم .. لو كنت من أتباع (فيثاغورس) وضعنا لك آلة وترية مع مثلث وفرجار وبعض الأدوات الهندسية ، كى تجدى التسلية باعتبار أن الفن للفن .. »

ـ « ولو كنت من السوفسطائيين ؟ »

ـ « لدينا فيلسوف سوفسطائى هنا يمكن أن يسليك طيلة الليل بمعضلات عقلية لا حل لها .. الخلاصة أن المسألة ليست مزاحًا .. نحن محترفون ونحب إرضاء الزبون خبيبى .. ترى ما هو مذهبك ؟ »

فكرت حينًا ثم قالت فى ضيق :

ـ « ليس لى مذهب بعد .. أحاول أن أتعلم .. »

قال وهو يناولها مفتاح غرفتها :

ـ « حاول أن تجد واحدًا بسرعة .. إن اليونانى بلا مذهب فلسفى هو إنسان ضائع .. إنسان فى ورطة .. »

دخلت إلى الفراش ، وكانت مرهقة بحق بعد يوم كامل من المشى فى الأكاديمية والليسيه ..

كانت قدماها تنبضان كأن لها قلبًا فى كل قدم .. ورأسها يدق بإيقاع محبب خاص به .. سوف تتعلم الفلسفة ولسوف تواجه واقعها .. ستصير أقوى .. لن يجسر أحد على ....

هنا انفتح الباب بقوة فهبت مذعورة .. كان جوار رأسها دن من الفخار امتلأ بالماء فطوحت به بقوة وبلا تفكير فى وجه الرجل الذى اقتحم الباب ..

لحسن الحظ لم يصبه وارتطم بالجدار ليتهشم إلى ألف قطعة .. لكنها استطاعت أن ترى أنه رجل عجوز طيب لا يبدو خطرًا ، وهو يحمل شمعة ..

أما أجمل ما فى الأمر فهو إنه يلبس برميلاً .. نعم .. يلبس برميلاً

خشبيًا يستعمله كدرقة السلحفاة .. فتخرج منـه قدماه ويداه ورأسـه .. كـأن هـذا مشـهد من أحد أفـلام الفـارص Farce الكوميدية ..

نظر لها الرجل ـ الذى لا بد أنه فيلسوف ـ وجال بعينيـه فى أرجاء الغرفة ثم قال بأسى :

ـ « ألا يوجد هنا شخص أمين ؟ شخص واحد أمين ؟ »

ثم غادر الغرفة .. وجلست هى فى الفراش تفرك عينيهـا غير متأكدة مما إذا كان هذا حلمًا أم كابوسًا أم حقيقة ..

ـ « معذرة أيتها الحسناء .. »

قالها صاحب الخان وهو يقف على البـاب ممسكًا شمعة أخرى .. وأردف :

ـ « نسيت أن أحذرك من زيارة (ديوجيـن Diogenes) .. إنه يقتحم البيوت والغرف فى هذه السـاعة مـن الليل باحثًا فى ضوء شمعة عن رجل أمين ! هذه عادته خبيبى .. »

جمعت الملاءة على صدرها وتساءلت :

ـ « ولم يجده بعد كل هذا البحث ؟ »

ـ « إنه يحاول .. لكنه لم يجده حتى هذه اللحظة .. لا أحتاج إلى أن أكون فيلسوفًا كى أعرف هـذه النتيجـة بنفسـى .. والآن تصبح على خير خبيبى .. »

اليونانى بلا مذهب فلسفى هو إنسان فى ورطة .. كـررت هذه العبارة لنفسها وابتسمت ..

فـى الصبـاح خرجـت (عبـير) مـن الخـان لتجـد هـذا الـ (ديوجين) يجوب الطرقـات فـى البـرميل الـذى يلبسـه .. الآن تتذكر من هو .. لقد رسمه رسامون كثـيرون .. لكنهم لـم يتفقـوا حـول شـكل البـرميل .. هـل هـو يلبسـه كدرقـة السلحفاة أم يعيش فيه كأنه غواصة صغيرة مجهزة بفـراش ومكتبة ومنضدة كتابة ..

هـذا هـو النموذج الأصـدق للفلاسـفة الكلبيين Cynics الذين يرون أن حيـاة الكلب هى المثل الأعلى .. الكثير من التسول والزحف على الأرض .. مع المزيـد مـن (الكلبيـة) طلبًا للكمال .. لا أكل .. لا ثروة .. لا زواج .. الكلب سعيد راض بحاله وكذا يجب أن يصير الإنسان ..

غريب أمر هؤلاء .. وخطر لها أن حظ المجاذيب الذين يجوبون الأزقة خلف مسجد (الحسين) تعس حقًا .. لو ولـد هؤلاء فى اليونان القديمة لصار لهم أتباع وتلاميذ ..

كانت هنـاك فـى حارتهـا امـرأة متسولة .. تتسول طيلـة الأسبوع ثم تبتاع بمـا جمعتـه من مـال سمنًا .. مـاذا تفعل بالسمن ؟ تسكبه على رأسها طبعًا ! ولا تسألني عن السبب ..

كان اسم المرأة (أم رزة) .. ولو عاشت فى اليونان قديمًا لصار لها أتباع وتلاميذ وأكاديمية .. ولصارت مذهبًا فلسفيًا يطلق عليه (الرزيون) أو (السمنيون) ..

ثمة موكب مهيب يتقدم ..

فى المقدمة جواد أبيض شامخ يركبه رجل قوى وسيم واضح السلطة والذكاء .. لا يهم أن تعرف اسمه .. يكفى أن تعرف أنه حاكم ..

يتوقف الموكب أمام الفيلسوف الواقف فى برميله على الأرض بلا مبالاة .. اقتربت (عبير) لتسمع هذه المحادثة المثيرة بين الفيلسوف الكلبى والحاكم .. من المثير دومًا سماع المحادثات بين السلطة والفلاسفة ..

قال الحاكم من فوق صهوة جواده :

- « أين وطنك يا (دويوجين) ؟ »

نظر الفيلسوف لأعلى ثم قال فى ضيق :

- « أنا مواطن عالمى أنتمى لكل البلدان ! »

- « وهل يوجد شىء كهذا ؟ »

- « هذا أقوى وضع ممكن للإنسان .. هكذا لا يمكن نفيى .. لو نفتنى السلطات إلى أى بلد فأنا فى وطنى ! »

- « يمكننا إعدامك لو شئنا .. »

- « وما المشكلة فى إعدام كلب ؟ كما يقولون (كلب وراح) !! »

فكر الحاكم قليلاً وبدا أنه يتسلى بالوضع .. هذا الفيلسوف لا خطر منه ومسل كأى مهرج فى بلاط سلطان .. إن إظهار الغضب مع رجل كهذا أقرب إلى الضعف منه إلى القوة والهيبة .. لابد من الابتسام .. الكثير من القوة ..

- « قل لى يا (ديوجين) .. تمن أى شىء وسأحققه لك .. »

- « أى شىء .. »

- « نعم .. الذهب .. الفضة .. الضياع .. أى شىء .. »

فكر الفيلسوف قليلاً ثم قال فى حذر :

- « لا أتمنى إلا أن تتصرف يا مولاى لأنك تحجب الشمس عنى ! »

كادت (عبير) تنفجر ضحكًا .. الورطة الحقيقية التى يواجهها أى حاكم هى أن يقابل رجلاً لا يخشاه فعلاً .. رجلاً لا يريد شيئًا منه فعلاً ..

هنا سمعت الفتى (مينوس) يتكلم من ورائها ، فى نوع من الحذر :

- «لماذا تقفين هنا ؟ لا أعتقد أن الإسكندر الأكبر نسى وجهك !»

التفتت إلى الخلف فى ذعر :

- «ماذا ؟ هذا الحاكم فوق الجواد هو الإسكندر الأكبر ؟ ألم يكن طفلاً أمس ؟»

- «لاتنسى أن هذه (فانتازيا) .. حيث لايتصرف الزمن بطريقة طبيعية ، ولو كنت مكانك لفررت كأن الجحيم يطاردنى ..»

هنا سمعت صوت الحاكم الآمر يقول :

- «أنت يا فتاة ! أين رأيتك من قبل ؟ اقتربى قليلاً لأرى ملامحك !»

هتفت بصوت مرتعش وهى تنظر للأرض :

- «لم ترنى يا مولاى .. إنها ظاهرة (ديجا فو Dèjà vu) لا أكثر ..»

قال وقد نسى كل شىء عن الفيلسوف :

- «لحظة .. ربما كان لقاؤنا فى مدرسة (أرسطو) ؟ هل أنت متأكدة من أن ؟»

هنا كانت قد أطلقت ساقيها للريح ..

اصطدمت ببعض سلال مليئة بالبرتقال فوثبت فوقها .. كان هذا حظًا حسنًا لأنها سمعت جند الإسكندر يتعثرون

فى البرتقال .. ثم عبرت من خلف عربة محملة بالقش - وهناك دائمًا عربة محملة بالقش - تتحرك لتقف جوار الجدار ، وهكذا انغلق الطريق من خلفها ..

كانت تعرف تقاليد مطاردات الأسواق هذه ..

خاصة إذا كان الأمر نوعًا من أسلوب (اللسان فى الخد Tongue in Cheek) حيث يوجد جو عام من المرح وسرعة الحركة .. لابد أن تظهر عربة محملة بالخنازير من مكان ما ، ولا بد أن تثب إلى ظهر العربة لتختفى وسط الخنازير .. صحيح أن هناك الكثير من القذارة والنجاسة والخوار ، لكنها على الأقل ستهرب .. لا تحب كثيرًا أن تقع فى يد الإسكندر الأكبر ليعاقبها على عقد طفولته ، خاصة أنها تعرف أن أحدًا لم يضربه صبيًا باستثنائها .. كان بعض أمراء القرون الوسطى يتلقون العلم مع عبد مخصص لهذه الأمور ، فإذا استحقوا العقاب تلقاه العبد بدلاً منهم .. لابد أن الإسكندر لم يكن استثناء ..

الآن هى وسط الخنازير تكتم أنفها ، وتعترف بأن دراسة الفلسفة لم توصلها إلا إلى هذا المكان ..

ترى ماذا يمكن أن تجده فى هذا العالم بعدما شبعت من الفلسفة اليونانية ؟

* * *

7ـ هكذا تكلم زرادشت ..

« وهكذا احتل الثعلب مكان النسر .. لقد كان انتقامًا بارعًا من جانب الجبناء ضد ذوى الجرأة والجسارة .. لقد أبعد السادة الأقوياء وانتصرت أخلاق الرعاع .. »

نيتشه

★ ★ ★

وتنزل (عبير) من عربة الخنازير التى فرت بها من الإسكندر .. صحيح أنها لم تعد جميلة ولا أنيقة ، لكن لا يبدو أن هناك من يبالى بها .. إنها فى مكان ما من أوروبا .. ربما فى القرن التاسع عشر أو الثامن عشر .. لقد كان فرارها عبر الزمن كما كان عبر المسافات كما هو واضح ..

أين هى ؟ ما هى البداية الآن ؟

ثمة صوت هدير .. الأرض تهتز بشدة .. غبار يتصاعد فى الأفق ..

ركعت على ركبتيها بشكل غريزى .. لا يمكن أن يكون هذا جيش (الإسكندر) إلا لو كانوا اخترعوا الدبابات .. ولكن .. دبابات ؟

بالفعل هناك صف منها يتقدم .. دبابات عتيقة يبدو أنها تعود للحرب العالمية الثانية .. جنازيرها لا تكف عن الأنين .. صليب القوات البرية الألمانية على كل دبابة ، وآلاف المشاة يلبسون الخوذات الألمانية الغريبة والمعاطف ، ويمشون بخطوة الأوزة الشهيرة .. وصيحات عسكرية بالألمانية من تلك التى تبدو لأذنك كأنها طلقات مترليوز .. إن الألمانية واليابانية لغتان صالحتان فعلاً للعسكرية .. يكفى أن تسمع لفظة (آختونج) أو (هالت) بطريقتهم ليتجمد الدم فى عروقك ..

لم تدر ما دخل هذا المشهد المهيب فى الفلسفة .. لكنها على الأقل كانت واقفة وسط المروج تراقب هذا الجيش العرمرم يتقدم فى الوادى من تحتها ..

هنا شعرت بمن يتقدم ليقف جوارها ..

كان رجلاً متوسط الطول نحيلاً ، يقف فى وضع متصلب متشنج وقد فرد يده اليمنى فى حركة مميزة .. ورأت شاربه الرفيع المضحك فعرفت على الفور أنها قابلته من قبل .. بل كانت حبيبته كذلك !

ـ « هايل (هتلر) .. »

نظر لها بسرعة ثم عاد يحيى جيوشه الزاحفة .. وهتف :

ـ «تقدموا يا أبناء الجيش الآرى ! ألمانيا فوق الجميع ! لا تأخذنكم شفقة بضعيف أو مريض أو عاجز .. إن الحياة مهينة لكم مفتوحة أمام جحافلكم .. »

هذه المرة لاحظت أن هناك رجلاً آخر قصير القامة ، له شارب كث غريب .. لقد قابلته من قبل فى نادى الفلاسفة الغربيين .. لكنها نسيت اسمه ..

كان يرمق المشهد فى رضا .. وهلل قائلاً لـ (هتلر) :

ـ «مرحى .. مرحى ! أنت فهمت تعليماتى جيدًا .. هكذا تكلم (زرادشت Zarathustra) ! »

وفجأة تحسس رأسه .. من الواضح أن نوبة صداع عنيفة قد داهمته ..

أخرج (هتلر) منظارًا مقربًا ، وراح يتفقد المشهد ثم قال :

ـ «إننى أضع كتابك تحت وسادتى يا (نيتشه Nietzsche) .. أقرؤه كل ليلة .. لم أنس حرفًا فيه .. »

دوت الانفجارات فراح (هتلر) يرقص طربًا .. الموت لـ (تشيكوسلوفاكيا) .. الويل لـ (بولندا) .. تسقط فرنسا !

اقتربت من الفيلسوف الذى راح يداعب شاربه فى استمتاع ، وقالت :

ـ « هل يضايقك لو سمعت فلسفتك ؟ على قدر علمى لم يؤثر الفلاسفة فى حركة التاريخ البشرى إلى هذا الحد من قبل .. يبدو لى أنك رجل خطير .. »

قال لها فى رضا :

ـ « هناك أمثلة أخرى مهمة فى التاريخ ، لكن هذا مثال قوى .. يمكنك أن ترافقينى بعض الوقت .. »

وحيا (هتلر) بتلك الطريقة العصبية التى صارت شعارًا للنازية ، ثم ابتعد وهى تمشى معه .. كان المرج يمتد أمامها هادئًا مسالمًا .. الجحيم هناك فى الوادى بينما السلام والأمن هنا ..

سألته فى حذر :

ـ « لا أريد أن أكون وقحة .. لكن ما سر الشارب المضحك ؟ إنه يبدو كفرشاة تنظيف البلاط .. »

تحسس شاربه فى فخر وقال :

ـ « كان لى فم حساس وعينان حادتان ثاقبتان .. هكذا قررت

أن أطيل شاربى ليخفى فمى تمامًا .. إن هذا يجعل وجهى بادى القسوة لا يكترث بشىء .. ألا ترين هذا ؟ »

ـ « ما زلت أشعر بأنك ألصقت فرشاة تنظيف بلاط تحت أنفك .. »

ـ « هذا لا يهم .. أنت حمقاء لأنك امرأة .. »

ثم صاح ينادى رجلاً يقف بعيدًا ..

ـ « (زرادشت) .. أيها العبقرى ! تعال ! »

من موضعه دنا الرجل .. كانت له لحية طويلة مضفرة وثياب غريبة ، وكانت فى يده أفعى حية .. باختصار كان يبدو ككاهن وثنى أو كأحد الأشوريين الذين تراهم فى النقوش .. هل تريد رأيى ؟ كان يبدو مثل (كسرى أنوشروان) كما يظهرونه فى التمثيليات الدينية أو التاريخية عندنا ..

قال (نيتشه) يقدم لها الرجل :

ـ « هذا هو (زرادشت) .. أحد حكماء الفرس القدامى ، وهو برىء من أكثر ما قلته على لسانه ، لكننى استعملته ليقول كل ما أردت قوله .. كان كتابى (هكذا تكلم زرادشت) شديد الأهمية ، وقد طبعت منه أربعين نسخة لكنى لم أستطع بيعها برغم ذلك ! هلا قدمت له نفسك ؟ »

هزت (عبير) رأسها فى أدب :

ـ « أنا (عبير) .. (عبير عبد الرحمن) .. »

قال (زرادشت) فى اشمئزاز :

ـ « أنت امرأة .. وأنا لا أعتبر المرأة إلا وعاء للحمل يترعرع فيه الجنس الأسمى .. السوبرمان .. إن قلب الرجل مكمن القسوة أما قلب المرأة فمكمن الشر .. فيما عدا هذا فلا قيمة لها ، ونصيحتى للناس هى : إذا ذهبت إلى المرأة فلا تنس السوط ! »

كان مجاملاً بحق لهذا هزت رأسها ، وقالت :

ـ « شكرًا .. »

صاح (نيتشه) فى مرح :

ـ « دعينا نمش مع (زرادشت) ولسوف نتعلم منه فى كل دقيقة شيئًا جديدًا .. »

وتحسس رأسه .. لو كانت (عبير) طبيبة لحسبت الرجل مصابًا بورم فى المخ .. لم يكن الأمر كذلك ، لكن أكثر الأطباء قالوا له هذا مما جعله يعيش فى انتظار الموت ..

هكذا مشى الثلاثة وسط المرج متجهين إلى جبل عال .. (عبير) و(زرادشت) ومخترع (زرادشت) .. إن سمعة (نيتشه) سيئة جدًا باعتباره الفيلسوف الذى دعا إلى مذهب القسوة والعنف .. وفى أوروبا يعتبرونه الأب الروحى للنازية .. بل إنه كان كئيب السحنة منذ ولد .. حتى قيل إنه الطفل الوحيد الذى ولد مهمومًا !

عند سفح الجبل توقف (زرادشت) عن المشى .. وانحنى يبحث عن شىء فى الكلأ .. فجأة أطلق صرخة ..

- « ثعبان ! »

لم تر (عبير) شيئًا غريبًا فى الأمر .. فهو يحمل ثعبانًا من البداية .. لكن يبدو أن عضة الثعابين الغريبة تكون أخطر .. مد يده فالتقط الزاحف البشع ، وقال له :

- « لطيف أنك لسعتنى .. فنبهتنى .. »

قال الثعبان :

- « للأسف لن تشكرنى طويلاً لأن سمى زعاف قاتل .. »

ابتسم (زرادشت) وقال :

- « هل للسم أن يقتل تنينًا ؟ خذ سمك أيها الثعبان ، فلست ثريًا حتى تقدم لى هدية .. »

هكذا راح الثعبان يلعق السم من على يد (زرادشت) ..

التفت (زرادشت) إلى (عبير) وقال :

- « لو كان لك عدو فلا تقابلى شره بالخير .. تظاهرى بأنه أفادك بعمله هذا .. وإذا ما نزلت بك مظلمة فقابليها بمثلها وأضيفى إليها خمسة مظالم صغيرة ، لئن ينتقم الإنسان فهذا أقرب إلى الخير .. وليس من الإنسانية أن يترفع مظلوم عن الانتقام ! »

هتف (نيتشه) بالألمانية بما معناه : يا سيدى ! أعد !

أما (عبير) فرأت أن فى هذه الفلسفة الطريق لخراب العالم .. الحقيقة أن (نيتشه) كان يدعو لفلسفة قاسية قوامها التخلص من الضعف البشرى .. لا رحمة .. القوة هى الأساس .. والأقوياء يجب أن يمارسوا قوتهم لأن هذا حقهم الطبيعى ، فلا يتركوا الضعفاء الأغبياء (الثعالب) يحرمونهم هذا الحق .. طبعًا لا داعى لذكر أن الإلحاد يشيع فى كل حرف من كتابات (نيتشه) .. لا أستطيع ترديد ما قاله لكنه يؤمن أن رجال الدين ابتكروا الدين ليخدعوا الأقوياء وينتزعوا منهم حقوقهم .. فى رأيه أن رجال الدين لم يكونوا يملكون قوة الجسد فاستغلوا عقولهم ، واخترعوا سلاح (التقوى والصلاة) وأشاعوا أن الضعفاء والفقراء هم الأخيار ، بينما الأقوياء والأغنياء هم أصل البلاء ..

حسب فلسفة (زرادشت) يتم الانتقـاء الطبيعى، ويظفر الأقوياء بحقوقهم ومزاياهم ويتم انتقاء الكائن الأفضل .. فى النهاية نصل إلى الشخص الأعظم : سوبرمان ..

★ ★ ★

«فلتحل اللعنة على من لا يتحملون فلسفتى، أمـا الذين يقدرونها حق قدرها فقد كتب عليهم أن يصبحـوا سـادة العالم ! »

نيتشه

★ ★ ★

قال (نيتشـه) كأنه أب فخور يسأل طفله تسميع جدول الضرب أمام الضيوف :

ـ « حدثها عن الروح يا (زرزر) .. »

(زرزر) ؟ تدليل (زرادشت) ؟ الحقيقـة أن تدليل هـذا الفيلسوف الفارسى ذى اللحية المجدولـة أمر لا يطـاق .. لكنه ـ برغم كل شىء ـ ابن (نيتشه) ..

قال (زرادشت) وهو يتأمل فى السماء :

ـ « الطفل جسد وروح .. أما البالغ الناضج فجسد فقط ! إن

الجسد يتكون من عدة آلات بينها الروح .. والعقل هو الذى يسيطر على هذه الآلـة .. إن الذات العليا المسيطرة على جسدك هى جسدك ذاته ! »

نظرت (عبير) فى رعب إلى (نيتشه) .. هذا فليسوف توصل بعد دراسات مرهقة إلى أن الروح جزء من الجسد .. كان رأيها دومًا أن هؤلاء الفلاسفة مخابيل .. لو تركت نفسها للأمر لما جرؤت على أن تعتبرهم مخابيل، لأن المدرسة الشكوكية ترفض أن يعتقد الإنسان أى شىء ..

ويواصل (زرادشت) صعود الجبل .. لقد بدأ الأكسجين ينذر، وبـدأت تلهـث .. يبـدو أن هـذا أسلوب الفلاسـفة الألمان .. كان اليونانيون يمشون مشيًا لم يمشـه جمل فى الصحراء أما هؤلاء فيتسلقون ..

سمع (زرادشت) لهاثها وسعال (نيتشه) فقال :

ـ « إن عـدد مـن يتسـلقون معى ذرى الحكمة ينقص كلمـا ازددت ارتفاعًا .. لكنى ذاهب هناك لألقى الإنسان الأعلى (سوبرمان) .. »

راح (نيتشه) يسعل ويبصق .. لكن (زرادشت) واصل التفلسف بلا انقطاع ..

إنهم الآن فوق قمة الجبل .. والفيلسوف ذو الشارب الكث يتحسس قلبه ورأسه .. نوبة قلبية وصداع فى وقت واحد .. هذه عبقرية ! كان طيلة حياته معتل الصحة .. ومن المثير أن تتخيل ما كان سيحل به فى مجتمع يزدرى الضعف الجسدى ..

فى النهاية صرخ فى وهن وسقط على الأرض ..

صرخت (عبير) بدورها تنادى (زرادشت) .. لو كان عبقريًا إلى الحد الذى يعتقده فلابد أنه يعرف كيف يعالج نوبة قلبية ...

ـ « افعل شيئًا ! »

ـ « سأفعل .. »

وببطء تقدم نحو (نيتشه) الراقد على الحافة .. رفع قدمه المكسوة بصندل فارسى أنيق ـ وإن كنت لا أعرف كيف يبدو ـ وضغط على يد الفيلسوف بقوة وقال :

ـ « إننى والحق أكره الرحماء .. احترسوا من الرحمة لأنها لاتلبث أن تعقد فوق الإنسان غيمًا متلبدًا .. إن المحبة الأعظم تتعامى عن الرحمة ، لأن لها هدفًا أسمى هو خلق من تحب ! »

قال (نيتشه) رافعًا رأسه .. لولا الضعف والألم لبدا مغتاظًا :

ـ « كف عن الفلسفة لحظة واحدة يا أحمق وانتشلنى ! »

قال (زرادشت) :

ـ « لاتجامل قريبك .. لأن الإنسان قنطرة يجب علينا تجاوزها للتفوق عليه .. تفوق على نفسك فى ذات قريبك فلاتدعه ينل حقًا تستطيع أنت أن تناله .. »

صاح (نيتشه) :

ـ « جميل .. جميل .. آى ! ولكن ما رأيك لو خرست قليلاً وساعدتنى ؟ »

واصل الحكيم الفارسى الكلام وهو يركل الفيلسوف المريض بقدمه :

ـ « إذا ما رأيتم شخصًا متداعيًا يوشك على السقوط ، فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه .. فإن عجزتم عن تعليم إنسان الطيران ، فعلى الأقل علموه أن يسقط بسرعة !!! »

قالها وأمام عينى (عبير) المذهولتين ركل (نيتشه) فى خصره ، فسرعان ما تدحرج هذا من فوق الحافة .. ولم يجد الوقت الكافى ليصرخ أو يتعلم الطيران ..

ـ « هكذا تكلم (زرادشت) !! »

أنهى الحكيم الفارسى موعظته الطويلة بهذه العبارة التى يوقع بها سمعيًا على فلسفته ..

إلى حد ما لم يبد هذا العقاب ظالمًا لـ (نيتشه) .. من حظه

الأسود أن (زرادشت) التزم بتعليماته حرفيًا .. فلو قابل فى هذه اللحظة شخصًا رحيمًا رقيق القلب يؤمن بأن (نيتشه) حمار لبقى حيًا ..

ـ « فلتحل اللعنة على من لا يتحملون فلسفتى ، أما الذين يقدرونها حق قدرها فقد كتب عليهم أن يصبحوا سادة العالم ! »

هذه كلمات (نيتشه) الرقيقة فى أحد كتبه .. (هتلر) قدر هذه الفلسفة حق قدرها .. وإن كان لم يصر سيد العالم .. فقط دهن نصف الكرة الأرضية باللون الأحمر ثم انتحر .. واقتضى الأمر خمسين عامًا وأطنانًا من مساحيق التنظيف حتى تم غسل هذا اللون الأحمر ..

وبدأت (عبير) تنزل من القمة ..

ولم تنظر للوراء ..

صاح (زرادشت) :

ـ « ألن تنتظرى مجىء السوبرمان معى ؟ »

ـ « فيما بعد .. فيما بعد .. »

لأنها كانت قد رأت ما يكفى من (نيتشه) ..

ولأن موعدها مع (شوبنهاور Schopenhauer) كان قد اقترب ..

* * *

8ـ الحياة شر ..

« لو كنت ملكًا لكان أول أمر أصدره إلى رعاياى هو : دعونى وحيدًا ! »

شوبنهاور

* * *

كان (شوبنهاور) يمشى فى شوارع (برلين) بمنظره الغريب ، فتنبح الكلاب ويصرخ الأطفال ويصابون بالسكتة القلبية .. بينما ترتجف الفتيات .. الحق إن مسخ (فرانكنشتاين) لو مشى فى هذه الشوارع لما أحدث هذا التأثير الذى يثيره هذا الفيلسوف .. والأغرب أن معه كلبًا صغيرًا غريب المنظر بدوره ..

حين رأته (عبير) عرفته على الفور .. إنه الرجل ذو السالفين الكثين اللذين يذكرانك بقرود البابون .. بالإضافة إلى نظرته النارية المجنونة وجبهته العالية السامقة ..

كان يمشى فى الشارع هامسًا بصوت غليظ :

ـ « صبرًا يا أمى ! سترين .. سأنتقم منك ! »

الحق أن علاقة هذا الفيلسوف بأمه فريدة مـن نوعها .. كراهية متبادلة لا يمكن وصفها .. وقد أنجبت هذه الكراهيـة فلسفة كئيبة قاسية تذكرك بفلسفة (نيتشه) .. ومـا أدركتـه (عبير) لدهشتها هو أن هذا الرجل سيئ الخلـق شـديد الفظاظة كما يقول منظره بالضبط .. وكانت تتوقع ألا يكـون عنيفًا كفلسفته .. لقد كسر ذراع صاحبة النزل الذى يعيش فيه ، وهكذا حكمت المحكمة عليه بأن يعلوها طيلـة حياتـه .. ومن سوء طالعه أن العجوز كـانت معمرة لدرجـة أنـه أقام احتفالاً يوم ماتت بعد أعوام لا حصر لها !!

الحقيقة أن (نيتشه) تأثر كثيرًا بفلسفة (شـوبنهاور) .. لكن هناك فارقًا مهمًا بين الاثنين سنعرفه حالاً ..

اقتربت (عبير) راجفة من الرجل ، وابتلعت ريقها وقالت :

ـ « هر (شوبنهاور) .. أنا (عبير) .. »

ـ « وما فى ذلك ؟ »

وتطاير الشرر من عينيه ، فقالت وهى تتراجع للوراء خطوة :

ـ « المفروض أن أتتلمذ على يديك .. »

ـ « لا خير لك فى فلسفتى يا فتاة .. فهى قاسية كئيبـة .. إن فلسفتى قائمة ببساطة على الإنكار .. إنكار كـل شـىء .. هل تريدين أن تصيرى تلميذة لى ؟ إذن موتى ! المـوت هو العودة بالحالة القلقة إلى السلام الكربونى الأولى ! »

ـ « إذن دعنى أصـغ قبل أن أموت .. ولكن اسمح لى أولاً أن أعرف سر غرابة شكل سالفيك .. »

قال فى عصبية :

ـ « وما شأنك بهذا ؟ على كل حال أنا لا أثق بأى مخلوق فى العالم ، وبالأخص موسى الحلاق .. »

ثم مـد يده إلى جيبه فأخرج كيسًا مدبوغًا من الجلد مليئـًا بالماء ، فقربه من شفتيه وشرب ..

إنه يخـاف المرض إلى أقصـى حد .. لهذا لا يريد المجازفة بلمس كوب ماء ربما لمسته شفتا شخص آخر .. بل إنه كـان يدخن الطباق بغليون طولـه متر ونصف ، كـى يضمن أن الدخان برد فلا يصيبه بالسرطان !

ـ « خلاصة فلسفتى هى أن الحياة شر خالص وأنها يجب أن تنتهى .. »

رأت (عبير) رجلاً قادمًا من نهاية الطريق ، وقد بدا عليه توتر شديد .. فلما اقترب صاح (شوبنهاور) فى اشمئزاز :

ـ « ناشرى .. ماذا وراءك ؟ »

دنا الرجل أكثر ووقف قرب (شوبنهاور) وإن كان على مسافة تتيح له الفرار ، وقال :

ـ « كتابك (العالم إرادة ورأى) .. بصراحة يجب أن أعترف لك .. لم نبع منه إلا بضع نسخ .. وقد اضطررت فى النهاية إلى إحضار تاجر كتب يحمل ميزانًا ، وقمنا بوزن الكتاب ثم ... »

ـ « هل جننت !! »

وبرغم حذر الناشر فإنه وقع بين يدى (شوبنهاور) الغليظتين .. فاعتصر هذا الأخير ياقة سترته وراح يهزه للأمام والخلف كأنما يصنع منه جبنًا ..

قال الناشر وهو لا يكف عن الاهتزاز :

ـ « اسمع .. المقدمة التى كتبتها مستفزة جدًا .. تصور أنك تقول فى مقدمة الكتاب .. لقد نسيت كلماتك .. »

قال الفليسوف البلطجى :

ـ « كل من أتم عملاً عظيمًا لا يضيره عدم إقبال الجماهير

عليه ، كما لا يضير العاقل تهجم المجانين عليه فى مستشفى المجاذيب ! »

ـ « وتريد أن تجذب القراء بهذه المقدمة ؟ »

هنا ازداد جنون الفيلسوف فراح يعتصر ياقة الناشر بعنف أكثر ، ثم مد يده فى جيبه وأخرج مسدسًا .. فصرخت (عبير) .. إن أساليب فلسفة هذا الرجل غريبة نوعًا ..

صاح صائح من الناحية الأخرى من الطريق :

ـ « كف أيها المجنون ! »

هنا فقط تخلت قبضة الفيلسوف عن الناشر ، ونظر إلى المتكلم ثم ضاقت عيناه فى استمتاع وحشى :

ـ « (هيجل Hegel) !! والله زمان ! »

ـ « أنت عار على الفلسفة بتشاؤمك ! »

ـ « وأنت لا تفقه شيئًا بتفاؤلك هذا ! »

كان الناس قد بدءوا يتجمعون حول الفيلسوفين يصغون لهما ، مما ذكر (عبير) بالزحام المماثل حول السفسطائيين فى (أثينا) .. الواقع أن (شوبنهاور) لم يخف يومًا احتقاره الشديد

لـ (هيجل) بفلسفته المليئة بالأمل .. وكان يحدد لمحاضراته نفس وقت محاضرات هذا الفيلسوف ..

قال (هيجل) للناس الواقفين حوله :

ـ « أنتم تعرفون أننى أدعـو للفلسفة المثالية Idealism .. الحقيقة عملية متغيرة ، أما الشىء الوحيد الثابت فهو قوة كونيـة عليا .. الحقيقة تنشأ من عملية ثلاثية هى الطريحة Thesis .. والنقيضة Antithesis .. وناتج الجمع بينهما Synthesis .. كل مـا هو حقيقى معقول وكل مـا هو معقـول حقيقـى .. والدولة هى النموذج الأعلى لهذه العملية حيث تولد الحقيقة ببطء من عمليات صراع متوالية .. »

ثم استبدت به الحماسة فصاح :

ـ « الإنسان وحده لا يساوى شيئًا .. فقط يسترد قيمته إذا صار عضـوًا فـى مؤسسـة أو نظام أو جمعيـة .. لا بد لكل سيارة من أن تحمل رقمًا وإلا هـى ليسـت سـيارة علـى الإطلاق ولا حق لها فى الوجود ! »

تصايح النـاس فـى حمـاس برغم أن (عبير) لـم تفهـم الكثير ..

هنا صاح (شوبنهاور) الغضوب فى الناس الواقفين حوله :

ـ « هذا كلام نظرى يصعب فهمه ويستحيل تطبيقه .. بينمـا الحقيقـة هـى التشـاؤم .. أنـا أهديـت إلـى العـالم مـن قطـوف عبقريتـى فلسفة الإرادة .. إرادة الحياة الموجودة فينا والتـى ترغمنا على أشياء غير منطقية .. نحن لا نريد الشىء لأن عقلنـا يريده ، بل لأن إرادة الحياة تريده فتسخر عقولنا كى تريده ! إرادة الأكل هـى التـى رسـمت شكل الفم والأسـنان وإرادة النمو هى التى تجـذب النبـات نحـو الشـمس .. إرادة الحيـاة هـذه صـراع طـويل لا جدوى منـه .. بـلا دافـع ولا غـرض ولا حـدود .. ثـم ينتهـى الأمـر ونمـوت وتنتصـر إرادة الديدان ! »

تصايح الناس المحيطون به فى حماس :

ـ « صدقت ! أنت عبقرى ! »

كان هذا تقريبًا ما يؤمن به (نيتشه) لكن هذا الأخير كـان يريـد أن تنتصـر إرادة الحيـاة علـى يـد الأقويـاء ، بينمـا (شوبنهاور) كان يريد القضاء عليها للأبد ..

تحمس الفيلسوف الغاضب أكثر .. فمد يده واعتصر عنق (عبير) التى صاحت لكن قبضته القوية لم تدع لها فرصة :

ـ « الخدعة الكبرى فى حياتنا هى المرأة .. إنها تتزود لسنين معدودة بالجمال والسحر حتى يتزوجها الرجال .. ثم سرعان ما تنجب وتفقد الفراشة الجميلة أجنحتها ، وتنقل الرسالة إلى أطفال أجمل منها .. بهذه الكيفية تستمر إرادة الحياة للأبد ولا تتوقف .. هكذا نحن نقع فى فخ الطبيعة غافلين .. ولا أعرف كيف يمكن أن يحب المرء هذه الكائنات ضيقة الكتفين ضئيلة الحجم قصيرة الساقين ! »

نظرت (عبير) لنفسها ، لم تكن مشوهة بشعة إلى هذا الحد ، وخطر لها أنها ستلاقى الكثير إلى أن تقابل فيلسوفًا يحترم المرأة فعلاً .. (سقراط) يعتبرها كارثة تحفز على الإنتاج الفلسفى على سبيل الهرب .. (أفلاطون) يراها شيئًا مقززًا .. (نيتشه) يراها مكمن الشر ولا تصلح إلا للحمل .. هذا كثير ..

ويواصل (نيتشه) الكلام بصوت عال كى يغطى على (هيجل) خصمه اللدود :

ـ « الحياة بندول يتأرجح بين ألم الحرمان وألم الشبع .. بين اشتهاء شىء والزهد فيه .. لقد خلق الإنسان للألم .. »

سعل أحدهم بجواره فارتجف .. وتراجع للوراء ، وقال فى غضب :

ـ « يا لك من أحمق ! ألم تسمع عن العدوى ؟ »

كان هذا تناقضًا لا بأس به .. فهذا الرجل الذى يتمنى القضاء على الحياة وأن يكف الناس عن التناسل ، يخاف أن يصاب بمرض صدرى .. وهذا الرجل الكاره للبشر يسعده كثيرًا أن يسمع صيحات الإعجاب وأن يرى اسمه فى الصحف .. لكن هذا مفهوم فى العباقرة على كل حال ، وقد قالها (أفلاطون) منذ قرون : أكثر العباقرة ضعاف الأخلاق محتقرون ، وربما أشرار أيضًا ! لم يحدث أن انطبقت هذه المقولة العبقرية على أحد أكثر من (شوبنهاور) و(بيتهوفن) ..

تصايح الناس من حول (شوبنهاور) :

ـ « صدقت ! إن الحياة شر يجب أن ينتهى ! »

وصاحت فتاة مدللة ملطخة بالأصباغ :

« ياى ! أنا أكره البشر ! لا أطيق أى كائن حى ! »

الحقيقة أن (شوبنهاور) قد نشر فى أوروبا كلها موضة (كراهية البشر) .. لا أعتقد أن العجوز (رفعت إسماعيل) معجب بـ (شوبنهاور) لكنه ينفذ تعليماته إلى حد ما .. وصارت مقولة (الحياة شر) نوعًا من تحية الصباح .. إن التشاؤم سهل وأقرب إلى طبيعة البشر الهشة أما التفاؤل فعسير يحتاج إلى جهد حقيقى ..

هنا سمع القوم من تقول :

ـ « (آرثر) ! أين أنت ؟ بحثت عنك كثيرً جدًا ! »

نظروا فرأوا فتاة قبيحة شابة لها سمت الخادمات تشق الزحام وهى تحمل طفلاً .. والطفل لا يكف عن العواء ..

بدا الارتباك على (شوبنهاور) ، وحاول التراجع لكن الفتاة صاحت :

ـ « ما دمت صرت ثريًا شهيرًا ، فقد صار بوسعك أن تنفق على ابنك ! »

تصايح الناس فى دهشة .. فيلسوف العدم المصر على إبادة الحياة ، له ابن وهو لا ينفق عليه برغم ثرائه وبخله الشديدين ..

ورأته (عبير) يتشاجر مع الفتاه ويقول لها كلامًا من طراز (ماذا جاء بك هنا ياولية ؟ هل جئت لتفضحينى ؟) .. إلخ .. موقف غير فلسفى على الإطلاق ..

هكذا أيقنت أنها اكتفت من فلسفة (شوبنهاور) و(هيجل) .. بالنسبة لهذا الأخير لم تكن على استعداد لفهم هذا الميكانيزم الثلاثى الذى يبشر به .. لهذا قررت أن تنسحب وتجرب حظها مع فيلسوف آخر ..

* * *

9ـ الآخرون ..

« 1 = 1 + 1 »

سارتر

* * *

فى الأيام التالية قابلت فلاسفة كثيرين جدًا ، وتداخلت الأسماء والآراء حتى إنها أشفقت على دارسى الفلسفة .. أشفقت عليهم إلى أن يبدعوا فى تأليف فلسفتهم الخاصة .. يبدو أن هذا داء مزمن فى هذا العلم .. الضحية تبتاع سوطًا بمجرد أن تترك وشأنها ..

قابلت الفيلسوف الألمانى (كانط Kant) وكان فى مختبر يمسك بقطعة من الورق وشمعة ..

قال لها وهو يثبت المونوكل على عينه :

ـ « الآن سألمس الورقة باللهب ..فماذا يحدث ؟ »

نظرت له فى حيرة وغباء ، ثم قالت :

ـ « يا سلام ! تحترق طبعًا .. »

صاح فى غضب :

ـ « لا .. لا .. لابد من التجريب .. هناك جزء من الاستدلال العقلى فى الموضوع لكن لا بديل عن التجريب ! »

ـ « إذن لا دور للعقل هنا .. »

ـ « كلا .. العقل يعطى بعض النتائج مقدمًا .. لكن الأشياء التى تقع خارج نطاق التجربة البشرية لا يمكن معرفتها .. هل مت من قبل ؟ »

فكرت حينًا ثم قالت فى ثقة :

ـ « لا أعتقد .. »

ـ « إذن من المستحيل أن تعرفى كنه الموت .. الروح وسر الكون أمور لا يمكن تجربتها .. (أشياء فى حد ذاتها) كما يحلو لى أن أسميها .. هذه الأشياء تشكل الـ (نومنون Noumenon) .. أى مفهوم الشىء .. وهذه لا يمكن إثباتها إلا بالعقل .. »

فى هذه اللحظة كانت الشمعة قد لمست الورقة فراحت تحترق ..

بلغت النار أنامله فصرخ وراح يعوى ، ويتواثب فى الغرفة ، فقالت (عبير) فى لهجة باردة :

ـ « تجربة ناجحة ! أنت الآن تعرف جيدًا أن النار تحرق الورق ! »

قال وهو لا يكف عن الأنين :

ـ « كانت هذه معضلة فلسفية حقيقية وقد حللتها ! »

خرجت (عبير) من عند الفيلسوف فاتجهت إلى أقرب صيدلية ، وابتاعت مهدئًا قويًا ..

فتحت العلبة وابتلعت قرصين من غير ماء .. إن هذا العالم سيقضى عليها فعلاً .. الغريب أنها بدأت تفكر بهذه الطريقة الملتوية العجيبة .. هل الدواء موجود لأنه موجود أم موجود لأنها تشعر به بحواسها ؟ هل الصيدلى انعكاس أم حقيقة ؟ هل الفلسفة أكذوبة كبرى وهى الطفل الذى صرخ : الإمبراطور عار تمامًا ؟ أم أنها بالفعل علم عظيم لا يستطيع مخها ـ الجدير ببرغوث ـ أن يستوعبه ؟

قال لها الصيدلى الألمانى وهو يرى رجفة يديها :

ـ «كثير من الفلسفة يا (فرويلاين) ؟ هذا متعب حقًا .. »

ثم أشار إلى الناحية الأخرى من النهر ، وقال :

ـ «جربى الفرنسيين قليلاً .. إنهم يختلفون عن الألمان ، وفلسفتهم لها مذاق خاص .. »

هزت رأسها فى امتنان :

ـ « شكرًا .. سأجرب هذا .. »

بالفعل لابد أنها ستعيش حياة أفضل هناك .. فرق كبير بين من يقولون (مودموازيل) و(ميرسى) وبين من يقولون (فرويلاين) و(ضانك) .. لابد أن الفلسفة الفرنسية أكثر نعومة وأناقة ..

★ ★ ★

قال لها الكهل الفرنسى الوقور وهو يتأمل النهر :

ـ « أنا أفكر إذن أنا موجود .. »

ثم راح يكرر هذه العبارة مرارًا ، وتهلل وجهه طربًا ..

ـ « أنا أفكر إذن أنا موجود ! هذا هو الجواب الصحيح .. لقد برهنت على وجودى !! الآن يمكن أن أبرهن على أى شىء فى العالم .. لقد وجدت نقطة البدء ! »

ثم استدار فطبع قبلة على يدها وانصرف ..

استدارت تبحث عن شخص تستغيث به للفهم ، ففوجئت بأن ذلك الفتى اليونانى (مينوس) يقف جوارها ، وهو يمضغ قطعة من الكرواسان ، وقد ارتدى ثيابًا حديثة ووضع الكاسكيت الباريسى العتيد على رأسه ..

قالت له باسمة :

ـ « لا أعرف كيف تنتقل عبر الأزمان والأماكن ، لكنى مسرورة بوجودك .. »

وأشارت إلى الكهل الذى ابتعد وهو يوشك على الرقص طربًا :

ـ « من هذا الأخ ؟ »

ـ « رينيه ديكارت Descartes) ؟ من الذى لايعرف (ديكارت) ؟ كان يشك فى كل شىء حتى وجوده ذاته .. ثم وجد الحل لهذه المعضلة .. ما دام يفكر فهو موجود .. »

ـ « يا سلام ؟ لو سألنى لقلت له هذا وانتهى الأمر .. »

ـ « هذه هى الفلسفة .. لا يوجد شىء واضح أبدًا .. رجل الشارع الأحمق يعتقد أن كيلوجرامين من اللحم أثقل من كيلوجرام واحد .. الفيلسوف لايعترف بهذا ويحاول إثبات العكس وغالبًا ما ينجح .. على كل حال الرجل مهم جدًا ، وقد وضع أهم أسس البحث العلمى والطريقة العلمية .. دعك من فلسفته (الثنائية Dualism) التى اكتشفت شيئًا شديد الأهمية .. إن العقل منفصل عن الجسد .. إنها قنبلة فلسفية ! »

قالت فى غيظ :

ـ « بصراحة لم تعد مرارتى تتحمل كل قنابلكم الفلسفية هذه .. سوف يظهر واحد آخر يخبرنى بأن القط يأكل الفأر .. وأن فى يدى خمسة أصابع .. »

ـ « ربما يأتى هذا اليوم السعيد ، إن التقدم لايقف عند حد .. »

★ ★ ★

عبر الشارع المظلم الخالى تقدم الرجل القصير لابس الكاسكيت بدراجته راجلاً .. كان يمشى جوارها وقد وضع فى سلتها رغيفًا فرنسيًا عملاقًا وزجاجة نبيذ (بوردو) .. ووقف للحظة يشعل لفافة تبغ ثم واصل المشى .. صوت (أم كلثوم) فرنسا (إديث بياف) ينبعث من مذياع قريب يقول إن الحياة وردة ..

فى نهاية الممر تقف شاحنة عسكرية هائلة الحجم يبدو أنها تنتظر شيئًا .. كل سائقى الشاحنات ينزلون ليشتروا طعامًا أو لفائف تبغ ..

نظر الرجل القصير ذات اليمين وذات اليسار .. هو ذا يمد يده فى خفة لص ، ويخرج منديلاً عملاقًا .. يبلله بمادة من زجاجة فى يده .. يتلفت يمينًا ويسارًا ثم يمد يده إلى غطاء خزان الوقود .. يفتحه .. يحشر المنديل فى الخزان ما عدا طرفه .. يشعل عود ثقاب .. يلامس المنديل المشتعل غير مكترث بآراء (كانط) .. ثم ..

يولى الأدبار !!

مر جوارها بدراجته وقد ظهرت خطوط السرعة من خلفه كما يحدث فى القصص المصورة .. صاح فيها :

ـ «ابتعدى يا آنسة .. هذا المكان سيتحول إلى .. »

بروووووووم !

جحيم ! فعلاً .. لقد انفجر خزان الوقود .. وهرعت (عبير) تركض جواره ، فتوقف وساعدها على الركوب من خلفه .. تشبثت به ، ثم انطلق بالدراجة بسرعة لا تصدق .. الرجل يلهث من فرط الجهد ولفافة التبغ التى تحرمه الهواء ، لكن قدميه لم تغيرا سرعتهما ..

اندلعت مع صوت الانفجار صيحات ألمانية .. هنا ؟ (أختونج) .. (هالت) .. (هلفتن) .. ثم دوت الطلقات من البنادق الآلية .. هذا هو البروتوكول .. وكل جملة ألمانية يليها سيل من الطلقات ...

إنهم النازيون لا شك فى هذا ، ولو كانت (عبير) حكيمة مثلنا لعرفت أن هذا الرجل من المقاومة الفرنسية .. كل رجال المقاومة الفرنسية يركبون دراجة ويضعون الكاسكيت ويحملون رغيفًا وزجاجة نبيذ (بوردو) .. لو كنت أنا الحاكم النازى لباريس لأعدمت كل من له هذا المظهر ، لكن النازيين لم يروا أفلامًا عن الاحتلال النازى لباريس !

صاح الرجل من بين أسنانه :

ـ «أوه .. رباه ! لو انتظرونا عند طرف الشارع الآخر لكانت نهايتنا ! لقد اخترنا وعلينا أن ندفع ثمن إختيارنا .. »

لكن قلقه لم يطل ، لأن بابًا انفتح وبرز منه أحد لابسى الكاسكيت وإن كان أقوى بنية وأشد مراسًا وصاح :

ـ « بس ! (جان بول) ! من هنا .. »

لم يسأل راكب الدراجة مرتين .. سرعان ما دلف بدراجته إلى الباب ، ووجدت (عبير) أنهما فى بئر سلم لبناية عتيقة .. وكان هناك رجلان من ذوى الكاسكيت يحمل كل منهما رغيفًا وزجاجة نبيذ (بوردو) ومدفعًا رشاشًا ..

ابتسم أحد الرجلين وانحنى يصافحها وطبع قبلة على يدها :

ـ « أوه .. رباه .. لم أتصور أن هذا الجمال فى المقاومة .. إن لها أنفًا كالبوق Nez en trompette .. »

لم تكن هذه إهانة لكنها مجاملة فرنسية للفتاة ذات الأنف الجميل .. طبعًا ليس الوقت مناسبًا لهذا الكلام الفارغ ، لكننا فى فرنسا على كل حال ..

قال (جان بول) وهو يجرها من يدها ..

ـ « بسرعة .. من أين جئتم ؟ »

ـ « من النفق المعتاد .. هلموا بنا ! »

وركضوا إلى ما يشبه بئرًا تحت السلم .. فى الوقت المناسب

طبعًا ، لأن صوت الكلام النازى إياه مع صوت الأحذية الثقيلة وصوت ضربات بدبشك البنادق على الباب راح يدوى ..

كانت العملية زحفًا فى الظلام دام بضع دقائق ، وفى النهاية وجدت (عبير) أنها تقف فى غابة فرنسية جميلة تبدو خارج العالم .. هذا النفق جاء فى وقته إذن ..

كانت هناك أربع دراجات مستندة إلى شجرة بلوط عملاقة .. كل دراجة تحمل رغيف خبز عملاقًا وزجاجة نبيذ (بوردو) .. يبدو أن هؤلاء القوم يتركون دراجاتهم ليجدوا دراجات أخرى مثلما كان رعاة البقر فى الغرب الأمريكى يستبدلون خيولهم فى الرحلات الطويلة ..

أشعل (جان بول) لفافة تبغ ، وقال وهو يركب دراجته :

ـ « لقد كانت عملية ناجحة .. لكن موعد البروفة قد اقترب .. يجب أن نفترق .. »

بروفة ؟ عم يتكلم هذا الرجل ؟ لقد انتهى لتوه من حرق شاحنة ألمانية وفر من الموت الأكيد ، فما دور البروفات هنا ؟

ركبت دراجة أخرى وراحت تحرك ساقيها شاردة الذهن .. من أنت ؟

أخيرًا دخلا (باريس) من جديد ووصلا إلى مبنى واسع، لم تعرف ما هو حتى رأت ذلك الملصق على الجدار :

الذباب
مسرحية لجان بول سارتر

هتفت فى دهشة :

ـ « (جان بول سارتر) .. هل هو هنا ؟ »

أشعل لفافة تبغ وهو يترجل :

ـ « أنا هو .. هل توجد مشكلة ما ؟ »

هنا فقط أدركت أنها رأت هذه الملامح من قبل .. القامة القصيرة والعوينات والعين الواحدة الحولاء حولاً وحشيًا (أى للخارج) .. للمرة الأولى تعرف أن (سارتر) كان عضوًا نشطًا فى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى لباريس .. بل إنه اعتقل لفترة ..

كان هذا هو مسرح (سارة برنار) .. لقد اقتادها (سارتر) إلى الصالة .. مجموعة من المقاعد الخالية بينما يؤدى الممثلون على المسرح البروفة .. كانت تحب هذا الجو .. جو (جنون المسرح) كما يلقبونه، مع كل دخان التبغ المنعقد

فى الجو، والغبار على المقاعد، وهياكل الخشب والخيش على المنصة .. كانت تحب المسرح حتى يتحول إلى مسرحية حقيقية تؤدى أمام الجمهور عندها تفقد إعجابها به .. بمعنى آخر كانت تحب مراحل تكوين الجنين ولا تحب الجنين نفسه ..

قدم لها (سارتر) إحدى الجالسات وقال :

ـ « (سيمون دى بوفوار) .. زميلة دراستى النجيبة وحبيبتى فيما بعد .. »

صافحتها (عبير) ثم جلست جوارها .. مرتبكة قليلاً بسبب عدم ألفة الجو، بينما أشعل (سارتر) لفافة تبغ وراح يتابع البروفات فى توتر .. مالت (عبير) على أذن المرأة وسألتها :

ـ « الذباب مسرحية إغريقية على ما أظن ؟ »

ـ « هناك قصة إغريقية بهذا المعنى .. لكن (سارتر) قد تناولها من منظور جديد .. هناك فى الأساطير الإغريقية مدينة كاملة ابتليت بالذباب، هى مدينة (أرجوس Argos)، وهذا لأنها تسترت على مصرع (أجاممنون Agamemnon) بطل حرب طروادة على يد زوجته (كلتمنسترا Clytemnestra) .. فى النهاية يقوم ابنها (أورست Orestes) بالانتقام لأبيه بمساعدة

أخته (إليكترا Electra) .. ما قام به (سارتر) فى مسرحية (الذباب) هو أن جعل المسرحية تتحدث عن الفلسفة الوجودية .. جعل (ايجسن) زوج الأم يرمز للنازيين و(كلمنسترا) ترمز لحكومة (فيشى) الفرنسية العميلة التى تعاونت معهم .. أما (أورست) فهو المثقف الوجودى الذى يفعل ما يؤمن به متحديًا (زيوس) نفسه .. وفى النهاية يغادر المدينة رمزًا إلى أنه يصلح للثورة والتحرير لكنه لا يصلح للحكم .. »

هنا شعرت (عبير) بأن هناك من يلصق أنفه بكتفها .. نظرت للوراء فوجدت جاسوسًا يحاول ألا يبدو كذلك .. قالت لها (سيمون) فى اشمئزاز وهى تنظر للوراء :

ـ « لا عليك .. إن المسرح يعج بهم .. لا تنسى أن النازيين يسيطرون على باريس ، ولهذا اضطر (سارتر) إلى استعمال الرمز كى لا توقف المسرحية .. »

ـ « لماذا لا تطردون هؤلاء الجواسيس ؟ »

ـ « إن (سارتر) يرى أننا لم ننعم بحريتنا قط مثلما نعمنا بها تحت احتلال النازيين .. لقد أرغمنا النازيون على الاتحاد والعمل والتحدى .. وهذه هى الحرية الحقيقية ! »

كان هناك شاب أسمر فارع القامة يقف مع (سارتر) يتكلمان .. جذبه (سارتر) من ذراعه واتجه به نحو (عبير) وقال فى حماس وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « هذا هو ممثل ومخرج مسرحيتى القادمة (الآخرون) .. »

بالعربية قال لها الشاب الفارع :

ـ « تشرفنا ! »

هتفت فى دهشة :

ـ « أنت عربى ؟! »

ـ «ولدت فى الجزائر .. إن اسمى هو (ألبير كامو Camus) .. »

وتوقع أن تصاب بذهول لدى سماع اسمه لكنها لم تستطع تذكر من هو .. سمعت الاسم مرارًا لكنها لا تعرف بمن يتعلق .. وهكذا سألته فى ذكاء :

ـ « هل لك علاقة بصابون الوجه ؟ »

نظر لها ثم لـ (سارتر) .. ثم آثر أن يبتعد ..

قالت لها (سيمون دى بوفوار) فى غيظ بعد انصراف الشاب :

ـ « أى صابون يا بلهاء ؟ هذا الرجل هو فيلسوف العبثية Adsurd الأهم والأعظم .. »

ـ « حسبته ممثلاً .. »

ـ « لا .. هذا مجرد مشروع لن يكتمل .. لن يلبث (كامو) أن ينشر روايته (الغريب) ويصير شهيرًا كفيلسوف وروائى .. »

عادت (عبير) إلى (سارتر) الذى جلس وسط مجموعة من الشباب السارتريين .. تعرفهم بسهولة من القمصان الواسعة التى يحكمون غلقها حتى أعلى زر فيها .. وعويناتهم الصغيرة ذات الإطار الأسود، ولفافات التبغ التى لا تفارق شفاههم .. فى هذا الزمن قبل أن يعرف الطب علاقة التدخين بسرطان الرئة وتوسع الحويصلات وتصلب الشرايين، كان التدخين يميز المثقفين، حتىَ إن (سارتر) قال يومًا : السجائر هى خبز المثقفين ! وهى كلمة سحبها سريعًا مع أول نوبة سعال داهمته ..

كان يمسك بكتاب لا يختلف حجمه عن أى (كومود) جوار فراشك .. واستطاعت (عبير) أن تقرأ عنوانه (الوجود والعدم) .. هذا هو الكتاب الذى يضم أهم مبادئ الرجل الفلسفية .. دعك من حشد من المقالات والمسرحيات والمرجع الأهم (نقد العقل الديالكتيكى) ..

أشعل (سارتر) لفافة تبغ وقال للشباب :

ـ « إن العدوان الثلاثى على مصر عمل غير أخلاقى ويجب أن نرفضه بكل قوانا .. فرنسا لا تريد إلا استعمار بلد حر من أجل قناة السويس التى لا تملكها أصلاً .. »

هتفت (عبير) فى دهشة :

ـ « عدوان ثلاثى عام 1956 ؟ والنازيون ما زالوا فى باريس ؟ »

قالت (سيمون دى بوفوار) وهى تشعل لفافة تبغ :

ـ « لا عليك .. هذا خلط زمنى مما اعتادته (فانتازيا) .. نحن الآن عام 1956 .. »

أشعل (سارتر) لفافة تبغ وقال للشباب مستطردًا :

ـ « احتلال فرنسا للجزائر عمل لا يليق بها .. يجب أن نقف بكل قوانا ضد هذا الاحتلال الغاشم .. إن المثقف الذى لا يحاول منع الحرب لا يختلف عن المجرم الذى أشعلها .. »

سأله أحد الشباب وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « لكن هذا يجلب علينا السخط .. سيعتبروننا خونة .. »

ـ « المثقف مسئول عن اختياراته .. هذا هو معنى الحرية .. الإنسان محكوم عليه بأن يكون حرًا وأن يكافح فى

عالم من المتناقضات .. ليست هناك قيم خارج الإنسان أو فوق إرادته .. كل إنسان وحدة مستقلة فريدة فى كون لا يبرر وجوده فيه أى شىء على الإطلاق .. ليس هناك ما يتيح لنا البقاء إلا إرادتنا الحرة .. »

هنا دخل أحد الممثلين القاعة وأعلن :

ـ « لقد انتحرت (موربيل) ! »

شهق الجميع بينما أشعل (سارتر) لفافة تبغ وسأله :

ـ « هل كان (كامو) معها ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « فهمت .. »

ثم عاد يواصل كلامه مع الشباب .. أحدهم مد أصابعه فى حلقه وراح يعبث حتى نجح فى النهاية فى أن يتقيأ .. هنا تحمس باقى الشباب .. هذا طقس مهم هنا .. الاشمئزاز الوجودى من سخف الحياة ، لكن يبدو أن (سارتر) لم يكن مولعًا بهذا الحماس الزائد ..

ـ « أنا أكره (هيجل) وأعتبره حمارًا .. إن فلسفته المثالية لا تصلح للتطبيق أو الحياة .. لقد حقر كل شىء فى الحياة وأنصف العقل .. لقد ألغى الفردية ومجد المؤسسات .. بينما فلسفتى صالحة لعالمنا هذا ولكل يوم من حياتنا .. فلسفتى هى الإنسان الفرد بمتاعبه ومشاكله .. »

هنا دخل رجل متأنق القاعة ، وفى تؤدة اتجه إلى (سارتر) وانحنى راسمًا نصف دائرة بجذعه وقال :

ـ « سيدى .. أنا (فردريك ڤسليم) من لجنة جائزة (نوبل) .. لقد فزتم بالجائزة عن إنجازاتكم فى الفلسفة ! »

أشعل (سارتر) لفافة تبغ ولم يتحرك من موضعه .. فقط نظر للرجل وقال :

ـ « إذن أرجو أن تبلغهم اعتذارى عن عدم قبولها .. »

يا للهول ! امتقع وجه الرجل وهتف فى جزع :

ـ « مسيو (سارتر) ! هذه هى أعظم جائزة فى التاريخ ! إنها الشرف والثراء مجسدين ! »

قال (سارتر) فى بطء وهو يستدير بظهره :

ـ « أنا أشك فى هذه الجائزة .. هناك عظماء كثيرون استحقوها ولم ينالوها .. لماذا لم تمنح لسوفييتى من قبل ؟ لماذا لم تمنح لعربى حتى الآن ؟ السوفييتى الوحيد الذى نالها

هو (باسترناك Pasternak) .. والسبب هو أن قصته (د. زيفاجو Doctor Zhivago) تهاجم النظام الشيوعى ، وقد رفض تسلمها على كل حال .. هذه الجائزة سياسية تمنح فقط لمن يؤيدون المشروع الغربى الاستعمارى .. وأنا أرفضها ! »

راح الرجل يرتجف غضبًا وغيظًا وحرجًا وراح يردد :

ـ « مسيو .. هذه إهانة .. هذه إهانة .. أنت لا .. لاتستطيع أن .... »

أشعل (سارتر) لفافة تبغ وقال فى برود :

ـ « بل أستطيع .. لم أفعل إلا أن مارست حريتى كمثقف فى أن أقول لا ! »

ابتعد الرجل وهو يرغى ويزبد .. وخيل لـ (عبير) أنها سمعت صوت طلقة من الكواليس ..

هنا دخل القاعة أحد الممثلين ليصيح :

ـ « انتحر (رينيه) ! »

أشعل (سارتر) لفافة تبغ وسأله :

ـ « هل كان مع (كامو) ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « تبًا ! قل لـ (كامو) أن يهمد قليلاً .. نحتاج إلى بعض الممثلين أحياء ! »

هنا نهضت (عبير) وهزت رأسها برقة محيية الجميع .. ربما كانت الوجودية صعبة ، لكنها مفهومة نوعًا قابلة للتطبيق ، وهذا يختلف عن كل متاهات (هيجل) و(كانط) وسواهم .. ربما لهذا دمغت (فرنسا) بطابعها طيلة الستينات .. لكن الحقيقة التى لايمكن تجاهلها هى أن الإلحاد عنصر جوهرى فى الفلسفة الوجودية .. وهذا يجعلها لقمة تستعصى على البلع أو المضغ ..

سألتها (سيمون) :

ـ « ألن تعرفى المزيد ؟ مازلنا فى البداية .. »

ـ « أريد سماع ما يقوله هذا المدعو (كامو) .. »

ـ « أرجو ألا يقنعك بالانتحار .. فهو يتمتع بكفاءة غير عادية فى هذا الصدد »

* * *

10ـ عبثية

« هناك قضية واحدة مهمة ألا وهى الانتحار ! »

ألبير كامو

★ ★ ★

قابلت (ألبير كامو) أثناء خروجه من حفل جائزة (نوبل) .. كان وسيمًا وجعله الفراك الذى يرتديه أكثر وسامة .. لهذا حاولت ألا تلمسه حتى لا تتسخ بذلته .. لقد قابل ملك (السويد) من دقائق وهو الآن يقابلها .. فأى فارق !

كان يحتضن الجائزة فى اعتزار ، ولفافة التبغ الوجودية إياها بين شفتيه ..

قالت له فى كياسة :

ـ « ألف مبروك .. لا بد أنك فخور بها .. »

هزّ رأسه فى رضا :

ـ « فى سن الرابعة والأربعين .. ليست شيئًا سيئًا .. هه ؟ »

قالت فى حذر محاولة ألا تستفزه :

ـ « (سارتر) رفضها لأنه يرفض اللجنة ذاتها .. »

قال فى غيظ :

ـ « يمكن لـ (سارتر) أن يمارس المواقف البطولية الطفولية كما يريد .. هذا حقه .. لكن لا تطالبى كل إنسان بأن يرفضها .. »

كانت تعرف هذا .. كلما رفض أديب أو فنان جائزة ما اتهمه الذين لم ينالوها ـ والذين نالوها من قبل ـ بأنه يمثل .. وأن روحًا درامية استبدت به .. الذين لم ينالوها لا يتصورون أن ينال أحد حلم حياتهم ويرفضه .. والذين قبلوها يشعرون بأن رافضها يهينهم بهذا الرفض .. قصة تتكرر مع (برنارد شو) و(مارلون براندو) ـ الذى رفض الأوسكار ـ وقريبًا جدًا رأيناها مع (صنع اللّه إبراهيم) الذى انقسم المثقفون العرب بشأنه إلى فريقين ..

اتجه (كامو) إلى سيارة رياضية أنيقة ، وسألها وهو يفتح الباب :

ـ « هل ترافقيننى »

كانت راغبة فى معرفة المزيد ، ففتحت الباب الجانبى وجلست ، وهنا لم تدر ما حدث .. لقد انطلقت السيارة بسرعة

ألف كيلومتر لو كان هذا ممكنًا .. ولم تصدق ما يحدث .. هذا الرجل مجنون ..

ـ « هل تعى أنك تقود سيارة لا صاروخًا ؟ »

قال وهو يزيد السرعة أكثر :

ـ « لا أبالى بهذه التفاصيل .. أريد أن ترى شيئًا .. »

راحت ترتجف .. وأيقنت أن نجاتها أمر شبه مستحيل ، فراحت تتلو الشهادتين فى سرها .. معالم الطريق غير واضحة حتى إنها لم تعرف إن كانا يمشيان فى مرج أم صحراء أم بحر .. ربع ساعة من الهلع التام ، إلى أن توقفت السيارة بفرملة أوشكت على أن توقف قلبها .. وشعرت (عبير) أن السيارة ذاتها لا تصدق أنها نجت لذا راحت تلهث ..

ـ « هل تقود دومًا بهذه السرعة المجنونة ؟ »

ـ « ليس دومًا .. أنا مرهق اليوم لهذا كانت سرعتى متوسطة .. »

وفتح الباب وترجل .. إنهما فى الصحراء .. ترى ماذا يريد من إحضارها هنا ؟ وأشار لها إلى جبل قريب وقال :

ـ « تأملى هذا الأحمق .. »

عند سفح الجبل كان هناك رجل .. رجل يبدو من عضلاته وثوبه أنه بطل إغريقى أسطورى .. كلهم يحمل الشكل ذاته ..

الرجل يدحرج صخرة عملاقة .. كل عضلة فى جسده تتوتر وكل وريد ينفر .. جهد خرافى جدير بالأساطير .. يدحرج الصخرة نحو قمة الجبل .. يئن .. يضغط على أسنانه .. يرتجف ...

لكن الصخرة كانت تتحرك .. ببطء تتحرك ..

هو ذا يصل إلى القمة بعد مجهود يثير الإعجاب ..

فى حماس هتفت (عبير) :

ـ « لقد نجح ! إن إرادته لا توصف ! إنه .... »

هنا شهقت .. لقد تدحرجت الصخرة من قمة الجبل إلى أسفل .. وهكذا هوت إلى السفح واستقرت هناك .. جفف البطل عرقه ثم اتجه إلى الصخرة من جديد وبدأ عملية دحرجتها إلى القمة ..

هتفت (عبير) :

ـ « لكن هذا جهد لا طائل من ورائه .. إنه .. إنه .. »

أشعل (كامو) لفافة تبغ واستند إلى سيارته وقال :

- « أبله تمامًا .. هيا قوليها ! هذا هو (سيزيف) البطل الإغريقى .. لسبب ما عاقبه (زيوس) بأحد أساليب العقاب الشهيرة لدى الإغريق .. عليه أن يدحرج هذه الصخرة للقمة إلى الأبد ، وكلما سقطت كان عليه أن يعيدها إلى القمة .. هذا هو ما نفعله فى الحياة .. عناء فى عناء .. جهد متواصل والنتيجة لا شيء لكننا نواصل هذا الجهد .. باختصار نحن مساجين محكوم علينا بالحياة .. كفاحنا لا يزيد على رفع هذه الصخرة إلى قمة الجبل .. نقرأ الفلاسفة الحمقى من أمثال (هيجل) و(نيتشه) و(ماركس) ونحسب أننا عرفنا الحقيقة .. بينما لا حقيقة إلا هذه الصخرة .. إن فلسفتى كلها تتلخص فى كتابى (أسطورة سيزيف) .. هل قرأته ؟ »

- « لا .. »

بدا عليه الامتعاض ، وقال :

- « هل قرأت (الغريب) أو (الطاعون) أو (سوء تفاهم) أو (الأبرار) أو (كاليجولا) ؟ »

هزت رأسها نفيًا فقال فى ضيق :

- « أين كنت تعيشين ؟ على المريخ ؟ »

- « تقريبًا .. »

فكر حينًا ثم قال :

- « على كل حال هذه هى خلاصة فلسفتى .. حياتنا عبثية لهذا نحاول أن نجملها بالفن والدين والحب .. من دون هذه الأمور يكون الانتحار مسألة وقت بل واجبًا على كل إنسان .. إن حياتنا سيئة لكن يمكن أن تكون أفضل لو تكاتفنا .. لا أمل هنالك ولا مخرج .. لهذا نحاول أن نجعل أيامنا على الأرض ممتعة قدر الإمكان .. »

سألته فى فضول حقيقى :

- « لماذا لم تنتحر حتى الآن ؟ »

- « لابد من شجاع يضحى ، ويقبل البقاء على الأرض لينصح الناس بالانتحار ! »

وأشار إلى سيارته ، وقال لها :

- « اركبى .. فقط أردت أن تعرفى مصدر فلسفة العبث أو الأبزيرد Absurd .. »

قالت شاكرة وهى تتراجع للوراء :

- « هذه السيارة ؟ لا .. لن أفعلها ثانية .. »

ركب وحده ، ولوح لها من النافذة وقال :

- « كما تريدين .. تذكرى أن كل شيء عبث ولا جدوى من الكفاح .. سلام ! »

- « سأتذكر هذا .. سلام ! »

وانطلقت سيارته بتلك السرعة الجهنمية الجديرة بالإلكترونات حول نواة الذرة ..

وقفت (عبير) بعض الوقت ترقب (سيزيف) .. كانت تعرف أنها ستتمكن من العودة .. لا مشكلة فى العودة من أى مكان فى (فانتازيا) .. هذه مشكلة الإدارة لا مشكلتها .. المهم أن ....

إىىىىىىى !

كراش !!

لم تر ما حدث لكنها خمنته دون جهد .. السيارة المجنونة اقتحمت شجرة ، وتحولت إلى كتلة من الصفيح لا تتبين لها مقدمة من مؤخرة .. ملحمة اختلط فيها الحديد الساخن بالزجاج باللحم بالفلسفة فى موقف عبثى حقيقى .. هكذا مات (كامو) فى حادث تصادم مروع .. ولحسن حظها أنها قررت ألا تركب معه .. ولحسن حظها أن أجله كان بعد توصيلها لا قبله !

هزت رأسها فى أسى واستعدت للعودة ..

لقد دنا وقت الامتحان الأخير ..

* * *

11 ـ قضية الفلسفة

دخلت نادى الفلاسفة الغربيين متوترة .. فى يدها كيس صغير فيه قلم وممحاة ومسطرة ..

تشعر بنفس الاضطراب الذى ألفته وتعرفه جيدًا .. اضطراب فى روحها وعقلها يمتد إلى قلبها وأمعائها .. لم تأخذ الأمر بجدية لكن أعراض الامتحان ليست انتقائية .. الرعب هو الرعب حتى لو كان امتحانًا فى دحرجة البلى .. فى الداخل يقف (أرسطو) بانتظارها .. طبعًا صار هو المدير بعد إعدام (سقراط) .. يلومها على التأخر .. يقتادها عبر المعبد اليونانى العتيق إلى قاعة بها منضدة خشبية ومقعد ..

- « اجلسى هنا .. هل معك شىء ؟ »

أخرجت من كيسها نسخة من كتاب عن (الفلسفة الغربية) كانت تطالعه قبل الموعد ..

قال ضاحكًا :

- « لبيق معك .. لن يحدث فارقًا .. لو كانت معك مكتبة فلسفية كاملة فلن تحدث فارقًا ما لم تتمتعى بعقل فلسفى .. »

ثم وضع أمامها ورقة الامتحان ، ووقع عليها ثم تركها وانصرف ..

راحت تتأمل الأسئلة فى قلق وهى تحاول السيطرة على أنفاسها المتقطعة :

الوقت ساعتان

أجب عن جميع الأسئلة :

1 ـ ما هو التركيب الثلاثى لفلسفة (هيجل) ؟
2 ـ لماذا رفض (سقراط) الفرار من السجن ؟
3 ـ ما الفارق بين فلسفة (هيوم) و (سبينوزا) ؟
4 ـ اذكر عشرة فوارق بين (أفلاطون) و (أرسطو) .
5 ـ ما هى نظرة (نيتشه) إلى المرأة ؟
6 ـ ما الفارق بين نظرة (نيتشه) و (شوبنهاور) لإرادة الحياة ؟؟
7 ـ اذكر اسم فيلسوفين كرها (هيجل) بشدة ، وعلل لما تقول .
8 ـ ما أهمية رقم عشرة عند الفيثاغورثيين ؟
9 ـ ما هو (النومينون) ومن مؤسس هذه الفكرة ؟
10 ـ ما الفارق بين (سارتر) و (كامو) ؟
11 ـ من هو مؤسس الفلسفة الذرية ؟ وما هى نظرة (أبيقور) للسعادة ؟
12 ـ ما هى عقيدة الأشكال الخاصة بـ (أفلاطون) وما تطبيقاتها على حياتنا ؟
13 ـ استغل الطغاة أفكار (هيجل) و (نيتشه) .. علل .

راحت تتلفت حولها بقلق .. رأت (أرسطو) يقف عن بعد يتكلم مع (أفلاطون) فصاحت :

ـ « لو سمحت .. »

اقترب منها وقد رسم علامات الصرامة على وجهه ، قائلاً :

ـ « الأسئلة واضحة فلا تضيعى وقتك .. »

فى رعب هتفت :

ـ « لم أتلق أية محاضرات عن (هيوم) ولا (سبينوزا) .. السؤال الثالث .. أتكلم عن السؤال الثالث .. »

ـ « سأتأكد من هذه النقطة .. »

وهزّ رأسه وغادر القاعة بعض الوقت .. بعد قليل عاد ومعه الفيلسوف البريطانى الصارم (هيوم Hume) .. قال هذا الأخير وهو ينظر لها بحدة :

ـ « لست مسئولاً .. أنت لم تحضرى أية محاضرة لى ، لكن الامتحان هو الامتحان .. »

ـ « لكنى لم أختر من ألقاه من فلاسفة .. إن .... »

باشمئزاز قال موجهًا كلامه لـ (أرسطو) لا لها :

ـ « كلهم نفس الشىء .. يقضون الوقت فى اللهو والعبث ، ثم تجدهم يختلقون كافة الأعذار وقت الامتحان .. »

ـ « لم يعد الطلبة كما كانوا فى الماضى .. »

هكذا راحت (عبير) فى تعاسة تحاول أن تكتب شيئًا .. طبعًا كان الأمر عسيرًا ، فقد اختلط الفلاسفة فى ذهنها ولم تعد تذكر من قال ماذا .. فقط تذكر أكبر مجموعة من السحنات المكفهرة والنظرات الحادة والأفكار المختلطة ..

بعد وقت طال من المحاولات التعسة ، نظرت إلى (أرسطو) فى قنوط وهتفت :

ـ « لا جدوى .. »

اقترب منها .. ونظر لها نظرة ثاقبة ، ثم أمسك بالورقة التى دونت فيها الإجابات .. بدأ مستمتعًا بهذا الذى يقرؤه .. فى النهاية قال :

ـ « دعك من الامتحان .. قولى لى بشكل عام : ما الذى خرجت به من الفلسفة ؟ »

فكرت حينًا وأرجعت ظهرها إلى الوراء .. ثم قالت :

ـ « لا شىء فى الواقع .. عندما جئت إلى هنا ، كنت أطلب إجابة بسيطة عن مشكلة بسيطة .. كيف أنتصر على الألم الذى أشعر به لأن زوجى تخلى عنى .. وجدت (أفلاطون) يطالبنى

بأن أنغمس فى الهندسة وحساب المثلثات كى أنسى .. ووجدت (ديوجين) يطالبنى بأن أعيش فى برميل وأعوى كالكلب .. ووجدت (أبيقور) يطالبنى بأن أشرب الخمر وألهو قدر الإمكان .. أنت ـ (أرسطو) ـ اقترحت أن أنتظر وأصبر إلى أن تصعد روحى وتعيش بين النجوم .. (كامو) اقترح أن أنتحر ، و(سارتر) يطالبنى بتحمل مسئولياتى ، و(هيجل) يريد أن أمزج بين الطريحة والنقيضة وأن أنضم لجمعية ما ليكون لحياتى معنى .. و(كانط) يطالبنى بالتجريب .. (نيتشه) و(شوبنهاور) يريان أننى كائن حقير لا نفع له إلا خديعة الرجال .. (فيثاغورس) يرى أن الموسيقا هى الحل خاصة لو أغرقت آلامى فى رقم (عشرة) .. كل هذا مع الكثير من المشى وتسلق الجبال والجرى فى شوارع (أثينا) و(باريس) .. لقد أتعبتنى الفلسفة .. أتعبتنى جدًا .. »

ووضعت القلم على المنضدة وأردفت :

ـ « الفلسفة كما رأيتها هى فن إضاعة الحقيقة .. البحث عن الشمس بينما هى تضىء الأفق .. الفيلسوف هو شخص فشل فى أن يفهم الحياة كما هى .. فشل أن يمارسها كما تمارسها قطة سعيدة راضية .. الإيمان بالله هبة ظفر بها البسطاء بينما حرم منها أكثر فلاسفتكم .. تعتقدون أن الطعام

وجد كى لا نأكله ، والشراب وجد كى لا نشربه ، والحب وجد كى لا نعيشه .. هناك أشياء مهمة فى الفلسفة بالطبع ، لكن هناك أشياء لاتطاق ولا يمكن احتمالها .. ولو قارنت فى ميزان البشرية بائع الفول الواقف على باب شارعنا بـ (نيتشه) لرجحت كفة بائع الفول على الفور .. إنه رجل سعيد مفيد لنفسه والآخرين .. »

قالتها وأطلقت زفيرًا طويلاً .. لقد نالت درجة الرسوب بجدارة إذن ..

لدهشتها ابتسم (أرسطو) .. شاعت البسمة فى وجهه الصارم الذى تجده فى أى كتاب تاريخ مدرسى عندك ، وقال :

ـ « لابأس .. لابأس .. عرفت كيف يفكر هؤلاء ، واستطعت تكوين رأيك الخاص .. »

وأردف وهو يجمع الأوراق المتناثرة أمامها :

ـ « رأيك فى الفلسفة هو نوع آخر من الفلسفة .. لقد نجحت فى تكوين مفهوم كامل للحياة والكون .. صحيح أنه ضد الجميع لكن منذ متى لم تصطدم فلسفة بأخرى ؟ سأعطيك درجة النجاح ! »

ـ « لكن .. »

صافحها بيده الإغريقية الخشنة وقال :

ـ « العادة هى أن تلميذ الفلسفة ينشئ مدرسته الخاصة فيما بعد .. هل تنوين بدء مذهب (العبيرية) إذن ؟ هذا المذهب يقول باختصار : كل الفلاسفة حمقى .. وعلى من يرغب فهم الحياة أن يعيشها ! »

ـ « لكن .... »

هنا شعرت بيد توضع على كتفها مع صوت مألوف يقول :

ـ « لا داعى للتطويل .. لقد أعطاك درجة النجاح وهذا كاف .. »

نظرت للوراء فوجدت المرشد يساعدها على النهوض ، بينما يردف :

ـ « لو غير رأيه لاضطررت إلى المرور بهذا (الكورس) من جديد ! »

ـ « أتوسل إليك ألا تفعل .. أريد الرحيل الآن .. فورًا .. حالاً .. »

وهكذا خرجا من المعبد .. يمران بحشد من رجال شاردى الذهن ، ورجال فى براميل ، ورجال يمدحون البراغيث ، ورجال يدخنون بإفراط ويناقشون الوجود والعدم ..

لقد كانت رحلة مرهقة لكنها انتهت ..

* * *

فـى القصـة القادمـة تواجـه (عبـير) رجـلاً اشـتهر بالكاريزما .. واشتهر بعينيه المخيفتين القادرتين على تغيير روحك وربما تغيير الوجود ذاته ..

كان اسم الرجل (راسبوتين) .....

* * *

تمت بحمد الله

المصادر

★ حلمى مراد : كتابى (الكتاب الشـهرى) .. الأعداد 48 و53 و86 و88 ..

★ أنيس منصور : الوجودية .. كتب للجميع .. 103

★ زكريا إبراهيم : الوجودية .. اقرأ .. 161

★ مراد وهبة : قصة الفلسفة .. اقرأ .. 305

★ أميرة حلمى : فلسفة الجمال .. المكتبة الثقافية .. 74

★ موسوعة المعرفة ..

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة من أرض الخيال

فلاسفة فى حسائى



د. أحمد خالد توفيق

عندما يجتمع (سقراط) و (أفلاطون) و (فيثاغورس) و (سارتر) و (نيتشه) و (شوبنهاور) وسواهم فى مكان واحد ، فلابد أن النتيجة تستحق المتابعة .. ولكن - كما أنذرتك مراراً - هذا كتاب لا يناسب ذوى ضغط الدم المرتفع ، ولا مرضى المرارة ، ولا الذين لا يعنيهم فهم الحياة بل الحياة نفسها !

القصة القادمة

عينان

الثمن فى مصر ٢٥٠ قرشاً
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر المؤسسة العربية الحديثة





مطابع